لغة الجسد وأثرها في الإبانة: دراسة في التراث اللغوي والبلاغي

د. مهدي أسعد عرار– فلسطين

جامعة بيرزيت ص.ب. 14

كلية الآداب – قسم اللغة العربية وآدابها

هاتف: 808 333 2 9 00970

ناسوخ:981 982 2 2 00970

البريد الإلكتروني:marar@birzeit.edu

مقدمّةٌ أوّليّةٌ:

صباحَ يومٍ كنتُ قدْ ولّيتُ وجهي شطرَ جامعتي قاصدًا عملي ثَمّ، وقدْ غدا لزامًا عليّ أنْ أجوزَ نقطةً عسكريّةً تضربُ بين المدينتَين ببابٍ، فالتقيتُ يومَها رجلاً أبكمَ أصمَّ قدْ عُقِد لسانُه، فصار يرسمُ بجوارحِه الجسميّةِ مرادَه، ليُنْبِئَ بها عن معانٍ داخليّةٍ يقولُها بها، فاقتنصتُ ساعتَها، وفاءً لِما صدر مِنه مِن حركاتٍ وإشاراتٍ وإيماءاتٍ وشمائلَ في سياقِها ذاك، أنّه يرنو إلى أنْ أعينَه على حملٍ كان قدْ أثقله، فلمّا انتهينا إلى الصّهيونيِّ في برجِه المحصَّنِ أومأ إليه الأصمُّ بحركاتٍ أخرَ مفارقةٍ للتي كانتْ مِنه معي أنْ يجوزَ الحاجزَ العسكريَّ، فردّ عليه الجنديّ بحركةٍ أخرى مستفهِمًا عن وجهتِه، وهكذا مضيا في رسمِ دلالاتٍ مخصوصةٍ دون أنْ ينبسا ببنتِ شفةٍ، وفاءً لاسترفادِ حركاتِ الجوارحِ التي قامتْ مقامَ كلماتٍ بلْ جملٍ، ثمّ دخلتُ الحاجزَ، فأبى الجنديُّ إدخالي، فأومأ إليه الأصمُّ ثالثةً بحركاتٍ جسميّةٍ بأنّه رفيقُ دربٍ لي كي أعينَه على حملِه، وأنّه لا قِبَلَ له بهذا السّفرِ إلاّ بالصّحبةِ تلك، فساءلني الجنديُّ بلسانٍ أعجميٍّ يجمجمُ ولا يكادُ يُبينُ، فانقطع التّواصلُ بيني وبينَه حتّى أفضى ذلك بي إلى أنْ أتأسّى بالأصمِّ في تواصلِه مع الجنديِّ، فاسترفدتُ مِن لغةِ الجسمِ الدّلالةَ والإبانةَ في ذلكم السّياقِ لأقولَ له بجوارحي إنّه معي، وإنّ وجهتَنا واحدةٌ، وإنّه كالكَلِّ على مَولاه، ولستُ أنسى استجابةَ الصّهيونيِّ الحركيّةَ التي تخلّقتْ ردّاً مِنه على حركتي، فقدْ أوحى بقوابلِ بندقيّتِه، وهزةِ رأسِه إلى اليمينِ أنِ امضِ.

وهكذا نقفُ في هذه الحادثةِ أمامَ ثالوثٍ في حدثٍ ما هو بكلاميٍّ، وإنّما هو تعبيريّ: الأصمِّ والصّهيونيِّ والباحثِ، أمّا أوّلُنا فقدْ أخذ الله سمعَه فحُرِم مِن اكتسابِ اللّغةِ فغدا لسانُه معقودًا، وأمّا الثّاني فقدْ كان ابنَ لسانٍ أعجميٍّ لا قِبَلَ للثّالثِ باستنطاقِه واستشرافِ مقاصدِ رسومِه وتعابيرِه، وأمّا الثّالثُ فقد كان يفيءُ إلى مرجعٍ مفارقٍ في تشكيلِه الصّوتيِّ والصّرفيِّ والتّركيبيِّ والمعجميِّ للثّاني، فكان حظُّهما التّفاصلَ، والمفارقةُ المُعْجِبةُ اللّطيفةُ أنّ الأصمَّ الفاقدَ للنّظامِ اللّغويِّ قدْ تواصل مع مالكِ النّظامِ، أعني معَه، ومعي مِن قبلُ، فاستذكرتُ ساعتَها إشارةَ مريمَ –عليها وعلى ولدِها السّلامُ– لمّا نذرتْ للرّحمنِ صَومًا عن الكلامِ فلم تكلّمْ يومَها إنسيّاً باللّفظِ، بل بلغةِ الجسدِ والإشارةِ، "فقالوا كيف نكلّمُ مَن كان في المهدِ صبيّاً"([1]).

واستذكرتُ كذلك قولَ الشّاعرِ:

وإذا التقينا والعيونُ رواموقٌ صَمَت اللّسانُ وطرفُها يتكلّمُ

تشكو فأفهمُ ما تقولُ بطرفِها ويردُّ طرفي مثلَ ذاك فتفهمُ([2]).

([1]) الآية(مريم، 29).

([2]) انظر: ابن داود، أبو محمد الأصفهاني، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م، 150/1.

واستذكرت أيضًا قولَ سيغموند فرويد: "ذاك الذي تصمتُ شفتاه يثرثرُ بطرفِ أصابعِه"([3]).

عَودًا على بَدءٍ، وأرجو أنْ يكونَ العَودُ أحمدَ، فلنا أنْ نشبّهَ المعنى بأنّ له روافدَ تغذّيه، وأنّ هذه الرّوافدَ كالمَجاري، فمِنها المَجرى الصّائتُ، وهو الكلامُ الذي تتشكّلُ به الرّسالةُ فينعقدُ به التّواصلُ، ومِنها المَجرى الصّامتُ الذي عليه عَقدُ البابِ والموضوعِ، وقد تُنقَلُ الرّسالةُ بالمَجرى الصّائتِ، وقدْ يكونُ ذلك بتضافرِ المَجريَين، وقد يُغذّى المعنى برافدِ المَجرى الصّامتِ كما كان معي في المتقدّمِ بيانُه، وقد ألفى باحثٌ أنّ تأثيرَ الرّسالةِ الكلّيَّ ينقسمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، أوّلُها 7% مِن المَجرى الصّائتِ، و 38% ممّا يعتري المَجرى الصّائتَ كالتّنغيمِ والنّغمةِ ودرجةِ الصّوتِ، و55% مِن المَجرى الصّامتِ([4]). وقدْ توصّل آخرُ إلى مُستصفى مِن الرّأيِ يقربُ مِن هذا المتقدّمِ، فقد ألمح إلى أنّ الجزءَ الكلاميَّ مِن المحادثةِ الوجاهيّةِ تأتلفُ في جزئِها الأصغرِ مِن 35% مِن الرّافدِ الصّائتِ لتأديةِ المعنى، وفي جزئِها الأكبرِ مِن 65% مِن الرّافدِ الصّامتِ القائمِ على اطّراحِ الكلامِ، واسترفادِ ما يقومُ مقامَه مِن حركاتِ الجوارحِ والشّمائلِ والإشاراتِ([5]).

وقدْ كان مِن محصولِ هذه الحادثةِ أنْ أعاودَ النّظرَ في مقولاتِ علمِ الدِّلالةِ والسّيمياءِ عامّةً، ولغةِ الجسمِ خاصّةً، فألفيتُ بابَ القولِ على هذا المطلبِ عريضًا على الصّعيدِ الغربيِّ، فإذا بهم يجترحون مصطلحًا قائمًا برأسِه، عَلمًا على ما يشتملُ عليه، جانحين إلى وسمِه بـ "علم الحركيّة" الذي هو هادٍ للجميعِ، وأداةٌ لها خطرُها للمتخصّصين في التّواصلِ والاتّصالاتِ مِن مثلِ مقدّمي النّدواتِ، والسّياسيّين، والمثقّفين، والأساتذةِ، ومديري العلاقاتِ العامّةِ، والصّحفيّين([6]), والمقاصدُ المتعيّنةُ مِن "علمِ الحركيّةِ" تسيرُ في ثلاثِ شُعَبٍ متلاحمةٍ، وهي "معرفةُ المرءِ نفسَه بصورةٍ أفضلَ، ومعرفتُه جعلَ نفسِه مفهومًا بصورةٍ أفضلَ، وفهمُ الآخرين فهمًا أفضلَ"([7]).

مِهادٌ وتأسيسٌ:

([3]) انظر: نتالي باكو، لغة الحركات، ط1، ترجمة سمير شيخاني، دار الجيل، بيروت، 1995م، 76.

([4]) Pease, A., Body language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, Camel Publishing Company, Australia, 1990, P.6.

([5]) Pease, Body Language, P.5.

([6]) انظر: باكو، لغة الحركات، 110.

([7]) انظر: باكو، لغة الحركات، 6.

لعلّه يحسنُ، بعدَ هذا المتقدِّمِ، أنْ نتبصّرَ في المقولاتِ التي يتعاطاها أهلُ هذا الدّرسِ لتكونَ كالمِهادِ لِما يعقبُه:

الحركةُ الجسميّةُ بين الفطريِّ والمُكتَسَبِ:

وقدْ خاض أهلُ هذا الدّرسِ في دراساتٍ عمليّةٍ تتلمّسُ مَنشَأَ هذه الحركاتِ، أو لنقلْ اللّغةِ الجسميّةِ عامّةً، أهي الفطرةُ أم الاكتسابُ، ومستصفى القولِ في تلكم المساءلاتِ أنّ بعضَ الحركاتِ باعثُها فطرةُ اللهِ التي فطرَ الخلقَ عليها، ولعلّ أجلى مثالٍ على ذلك الأطفالُ والصمُّ والبكمُ والعميُ الذين تصدرُ عنهم إيماءاتٌ وإشاراتٌ جسديّةٌ دونَ أنْ يكونوا قدْ رأَوْها فحاكَوها، كالابتسامةِ في معنى الفرحِ، والكِشرةِ في معنى الحزنِ، وتقطيبِ الوجهِ في معنى الغضبِ، وهِزّةِ الرّأسِ في معنى القَبولِ، وأنّ بعضَ تلكم الحركاتِ الجسديّةِ الدّالّةِ على معانٍ قدْ تتخلّقُ عندَ المرءِ بالاكتسابِ([8])، وأنّ هذه الحركاتِ المكتسَبةَ تُقسَمُ إلى قسمَين أوّلُهما أنْ تكونَ حركاتٍ مكتسبةً بالمحاكاةِ والتّقليدِ، وثانيهما أنْ تكونَ مكتسبةً بالدُّربةِ والمِراس، كالتّحايا العسكريّةِ، والغَمزِ بطرفِ العينِ، وإشاراتِ الصمِّ والبكمِّ المتعلَّمةِ([9]).

أمّا الضّربُ الأوّلُ مِن الحركاتِ – أعني الحركاتِ الفطريّةَ– فقدْ تردّدتْ بين ستّةِ معانٍ سُمّيت بالانفعالاتِ الستّةِ العالميّةِ، وأوّلُها البهجةُ، وثانيها الحزنُ، وثالثُها الاشمئزازُ، ورابعُها الخوفُ، وخامسُها الغضبُ، وسادسُها الدّهشُة، والحقُّ أنّ بِمُكْنَةِ المرءِ – بقطعِ النّظرِ عن لونِه وجنسِه ومَشرَبِه ولسانِه– أنْ يقتنصَ هذه المعانيَ بالفَيءِ إلى الإيماءاتِ والحركاتِ الفِطريّةِ التي تظهرُ في سياقِها، وقدْ نهد عالمُ نفسٍ أمريكيٌّ إلى الخوضِ في تأصيلِ هذه الانفعالاتِ الستّةِ طلبًا للتّحقّقِ مِن عموميّتِها وتعارفِ أهلِ الخليقةِ البشريّةِ عليها، فوزّع صورًا كان قدْ التقطها معبِّرةً عن تلكم المعاني المتقدِّمِ بيانُها على جماعاتٍ مِن أجناسٍ وبلدانٍ وأعمارٍ متباينةٍ، وكانتْ صفوةُ القولِ التي أفضتْ إليها نتائجُ مباحثاتِه دالّةً على أنّ العيّنةَ تتواضعُ على معانيها تواضعًا فطريّاً، فثَمّ:

93% مِنهم أجمعوا أمرَهم على معنى البهجةِ.

و88% أجمعوا على معنى الدّهشةِ.

و83% أجمعوا على معنى الاشمئزازِ.

و81% أجمعوا على معنى الحزنِ.

و76% أجمعوا على الخوفِ.

([8]) Pease, Body Language, P. 8.

([9]) انظر: باكو، لغة الحركات، 19.

و73% أجمعوا على معنى الغضبِ([10]).

الحركةُ الجسميّةُ بين الدّالِّ والمدلولِ:

لقد ارتضى "دي سوسير" أنْ يكونَ للكلمةِ جانبان: واحدٌ مادّيٌّ وآخرُ معنويٌّ، أمّا المادّيُّ فهو الدّالُّ، وهو الصّورةُ الصّوتيّةُ، وأمّا المعنويُّ فهو المدلولُ، وهو الصّورةُ الذّهنيّةُ التي تنقدحُ في النّفسِ عندَ ورودِ الدّالِّ عليها، والحقّ أنّ الحركةَ الجسديّةَ كذاك أمرُها؛ إذْ إنّ لها دالاًّ ومدلولاً. أمّا الدّالُّ فهو الصّورةُ التّشكيليّةُ التي تتجلّى عليها الحركةُ؛ حركةُ الكفِّ أو اليدِ أو العينِ أو الحاجبِ أو الوقفةِ... وأمّا المدلولُ فهو الصّورةُ الذّهنيّةُ المعنويّةُ التي تسترفدُ دلالتَها مِن الدّالِّ الحركيِّ، فكلتاهما –أعني الكلمةَ في اللّغةِ الصّائتةِ، والحركةَ في اللّغةِ الصّامتةِ(الجسدية)– تأتلفُ مِن دالٍّ ومدلولٍ، والمَلْمَحُ الفرّاقُ بينهما غيرُ متعيِّنٍ في المدلولِ، بل في ماهيّةِ الدّالِّ؛ إذْ إنّه في الصّائتةِ صوتيٌّ ذو طبيعةٍ رمزيّةٍ، وفي الصّامتةِ حركيٌّ ذو طبيعةٍ رمزيّةٍ أيضًا.

وكما كان يحدثُ أنْ يقعَ تحتَ الكلمةِ معنيان أوْ أزيدُ، لتغدوَ ممّا ينتسبُ إلى المشترَكِ اللّفظيِّ كالعينِ، فإنّ الحركةَ الجسديّةَ قدْ يقعُ تحتَها معنيانِ أو أزيدُ، فتنتسبُ إلى ظاهرةِ "المشترَكِ الحركيّ"، فهِزّةُ الرّأسِ يقعُ تحتَها معانٍ متعدّدةٌ، ومِن ذلك "الطّرب"، أو "القَبول"، أو "الرّفضُ"، والدّالُّ "فركُ الكفّين" قد يومِئُ بمدلولَين: أوّلُهما أنّ صاحبَ هذه الحركةِ قد اعتراه بَردٌ فآتاها، وثانيهما أنّه فرحٌ مبتهجٌ، وتحريكُ أصابعِ اليدِ إلى الأعلى والأسفلِ حركةً موضعيّةً مع بقاءِ الإبهامِ مرفوعًا ذو دِلالاتٍ متعدّدةٍ، ومِن ذلك أنّها تقومُ مَقامَ النّداءِ، أو تعالَ، وقد تعني: ليس لديّ، أو غيرَ موجود، أو تعني الرّفضَ كقولِنا "لا"، كلّ هذا المحتمِلِ لا قِبَلَ لنا باسشرافِ مدلولِه على وجهِ الإحكامِ والتّعيينِ إلاّ بالسّياقِ الذي يَرِدُ فيه هذا الدّالُّ الحركيّ؛ السّياقِ الثّقافيِّ والحاليِّ والقرائنِ الاجتماعيّةِ التي تحتفُّ بها.

([10]) انظر: باكو، لغة الحركات، 62، وقد أشار Pease إلى ثلاثة علماء درسوا تعابير الوجه لأناس من خمس ثقافات متباينة، وقد كانت نتائج دراساتهم تدل على أن الثقافات الخمسة التي أقيمت عليها الدراسة تلتقي على الإيماءات الوجهية نفسها، وهذا أفضى إلى التقرير بأن تلكم الإيماءات مما ينتسب إلى الفطرة التي أودعها الله فينا. انظر: Pease, Body Language, P. 8

وحكُّ الرّأسِ حركةٌ جسديّةٌ مشتركةٌ تستدعي معانيَ مخصوصةً في الذّهنِ، ومِن ذلك أنّها قدْ تدلّ على أنّ آتيَها في رأسِه قشرةٌ، أو قَملٌ، وقدْ تدلّ على قلقِ المرءِ واضطرابِه، فيفضي هذا الاضطرابُ النّفسيُّ الجَوانيُّ إلى إيماءٍ جسميٍّ بَرانيٍّ، وقدْ تدلّ – مِن وجهةٍ دلاليّةٍ أخرى– على نفادِ الصّبرِ، أو النّسيانِ، أو الكذبِ .... إخالُ أنّه يصحُّ في الفهمِ ويستقيمُ أنْ يقالَ إنّ المرءَ إذا ما أراد أنْ يعيّنَ معنى حركةٍ ما فإنّ عليه أنْ ينظرَ إليها في سياقِها متضافرةً مع حركاتٍ أخرَ، ولعلّنا في هذا المقامِ نتحدّثُ عن سياقِ الحالِ الذي يفعلُ في تشكيلِ المعنى وتعيينِه([11]).

وكما أنّ المعنى الواحدَ قدْ يعتورُه كلمتان، بلْ كلماتٌ، لينشأَ مِن بعدِ ذلك التّرادفُ، فإنّ طائفةً مِن الحركاتِ قدْ تلتقي على معنى واحدٍ، لينشأَ بعدَ هذا "التّرادفُ الحركيُّ"، ومِن ذلك معنى الرّفضِ، فله دالاّن أو أزيدُ، كالرّفضِ بهزّةٍ في الرّأسِ، والرّفضِ بالإشارةِ باليدِ، والرّفضِ برفعِ الحاجبَين إلى الأعلى مع توسّعِ العينَين، فحركةُ كلِّ جارحةٍ كفيلٌ أمينٌ بتأديةِ المعنى الذي قدْ تأتي به اللّغةُ الصّامتةُ. لعلّه يظهرُ بجلاءٍ ممّا تقدّم أنّ بعضَ النّظريّاتِ الدّلاليّةِ والمعجميّةِ يمكنُ جدّاً أنْ تُطبَّقَ على لغةِ الجسدِ، كالتّرادفِ والمشترَكِ والسّياقِ...

الحركةُ الجسديّةُ بين التّواصلِ والتّفاصلِ:

وقدْ باتَ مقرَّرًا، ممّا تقدّم قبْلاً، وسيأتي بعْدًا، أنّ للجسمِ لغةً بَرانيّةً تشي بأعراضٍ نفسيّةٍ جَوانيّةٍ، وتفيدُ معانيَ، وتؤدّي أغراضًا، وكلّ هذا ينتسبُ إلى بابِ القولِ على التّواصلِ والإبانةِ، ولكنْ، قدْ يَرِدُ على المرءِ أحداثٌ كلاميّةٌ يعتريها لَبسٌ وإشكالٌ، وقدْ يقعُ المرءُ في مِضمارِ الإلباسِ والتّعميةِ، والحقّ أنّ هذا اللّبسَ أو الإلباسَ قدْ يقعان في اللّغتَين الصّائتةِ والصّامتةِ. أمّا في الصّائتةِ فمُثُلُ ذلك متكاثرةٌ، والأثرُ بها مستفيضٌ، وقدْ عرّجتُ عليها في مستوياتٍ متباينةٍ؛ كاللّبسِ الآتي مِن التّصويتِ، والتّصريفِ، والتّركيبِ، والمعجمِ، والأسلوبِ، والسّياقِ([12]). أمّا في الصّامتةِ فقدْ يحاولُ المرءُ أنْ يستعينَ بلغةِ الجسمِ ليقولَ بها ما لا يضمرُ، وما يخفي صدْره أكبرُ، وأنّى له ذلك إلاّ في القليلِ النّادرِ، "والشّيءُ المثيرُ أنّ الحيوانَ البشريَّ قليلاً ما يدركُ أنّ حركاتِه وإشاراتِه وأوضاعَه يمكنُ أنْ تومِئَ بشيءٍ ما، ولكنّ صوتَه يحكي عن شيءٍ مغايرٍ تمامَ المغايرةِ"([13])، فالعقلُ الإنسانيُّ يمتلكُ مِفتاحَ أمانٍ وتحكّمٍ قدْ يسجّلُ انزياحًا عندما يستقبلُ وسائلَ صامتةً غيرَ متوافقةٍ أو منسجمةٍ، وقدْ ضرب Pease مثالاً على ذلك عندما تعمّي ملكاتُ الجمالِ معانيَ مخصوصةً، فتستعملُ كلُّ واحدةٍ حركاتٍ جسديّةً تكتسَبُ بالتّعلّمِ والدُّربةِ بغيةَ تقديمِ انطباعٍ

([11]) Pease, Body Language, P. 17.

([12]) انظر كتابي: ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.

([13])Pease, Body Language, P. 7.

ما؛ كالدّفءِ، أو الصّدقِ، أو الجاذبيّةِ، أو ... وقدْ يكنّ قادراتٍ على بعضِ هذا، كتزييفِ حركاتِ الجسمِ، ولكنّ الجسمَ سيصدِرُ إشاراتٍ عفويّةً تستقلّ عن الأفعالِ المقصودةِ([14])، والتّمثيلُ على هذا كثيرٌ في الأحداثِ الكلاميّةِ الحيّةِ، فكثيرًا ما نسمعُ أو نقولُ:

- لسانُه يقولُ لي أهلاً وسهلاً، وتعابيرُ وجهِه بخلافِ ذلك.
- لمْ أرَ في عينيهِ الصّدقَ، مع أنّه غلّظ أيمانَه.
- حركاتُ هذا الرّجلِ تبعثُ في نفسي الرّيبةَ.

الحركةُ الجسميّةُ بين العامِّ والخاصِّ:

ليتخيّلْ المرءُ نفسَه على صعيدٍ غربيٍّ ناءٍ، فقدْ يقعُ في نفسِه معانٍ ودلالاتٌ باعثُها الحركاتُ والإشاراتُ التي يراها ممّنْ تصدرُ مِنهم، والذي يظهرُ أنّ تلكم المعانيَ الآتيةَ مِن "لغةِ الجسد" ممّا ينتسبُ إلى معجمِه المعنويِّ، كالمعاني الانفعاليّةِ السّتّةِ التي أتينا عليها آنفًا، ولكنّه قدْ يقفُ وجاهَ حركاتٍ أخرَ ممّا هو خارجٌ عن مضمارِ معجمِ ثقافتِه، ومِن هنا لا بَدَّ في درسِ "لغة الجسم" مِن التّلميحِ إلى أنّ ثَمّ لغةً عالميّةً، وثانيةً خاصّةً تختلفُ باختلافِ الثّقافاتِ، ومِن ذلك حركةٌ جسميّةٌ حمّالةٌ لثلاثِ دِلالاتٍ تتباينُ بتباينِ الثّقافةِ والدّيارِ، وعمادُها عقدُ دائرةٍ مغلقةٍ بالإبهامِ والسّبّابةِ، ففي أمريكا تدلّ على معنى الموافقةِ، أو على أنّ الأمرَ أو الشّيءَ قدْ بات مُعَدّاً مُستحكِمًا، أمّا على صعيدٍ آخرَ، كفرنسا، فهي مُبِينةٌ عن معنى "لا شيءَ"، أو "هذا صفرٌ"، أو "هذا باطلٌ"، وعلى صعيدٍ ثالثٍ كاليابانِ، تُلْمِحُ هذه الحركةُ الجسديّةُ إلى النّقودِ([15])، وهِزّةُ الرّأسِ مِن جانبٍ إلى آخرَ معناها في بلغاريا أنّ صاحبَها يعلنُ الموافقةَ الجازمةَ والحاسمةَ([16])، وهي عندَنا ذاتُ وشايةٍ على معنى الرّفضِ والإنكارِ.

بينَ لغةِ الجسمِ واللّغةِ الإشاريّةِ:

ولعلّه –مِن وجهةٍ أخرى– يحسنُ إقامةُ بونٍ بين لغةِ الجسمِ واللّغةِ الإشاريّةِ؛ إذْ إنّ الأخيرةَ غدتْ مصطلَحًا ذا لُحْمةٍ وثقى بلغةِ الصّمِّ والبكمِ، والحقّ أنّها ذاتُ نسبٍ حميمٍ بهذه المباحثةِ، فهي قائمةٌ على حركةِ الجسمِ؛ كتشكيلِ الأيدي الحاملةِ تسعَ عشرةَ قيمةً دِلاليّةً، ومكانِ النّطقِ الحاملِ اثنتي عشرةَ قيمةً دلاليّةً، كالخدِّ، والحاجبِ، واليدِ العليا،...، والحركةِ الحاملةِ

([14]) Pease, Body Language, P. 21.

([15]) انظر: باكو، لغة الحركات، 12– 14، و Pease, Body Language, P.12-13

([16]) انظر: باكو، لغة الحركات، 14.

لأربعةٍ وعشرين مَغزى([17])، والحقّ أنّ اللّغةَ الإشاريّةَ لغةٌ قائمةٌ برأسِها باعتبارِها مَدخلاً رئيسًا لتعليمِ الصّمّ تتحكّمُ بها أسسٌ، وتنظّمُها قوانينُ، وقد اعترفت الدّولُ التي تسمَّى متطوّرةً بها بالنّظرِ إليها على أنّها لغةُ أقلّيّاتٍ([18])، فقدْ صارتْ فيها كلّ حركةٍ مخصوصةٍ تُتَعلَّمُ لا تُكتَسَبُ حمّالةً لدِلالةٍ لا يهتدي إلى معناها إلاّ أهلُ التّواضعِ، وأصبح فيها –أعني في اللّغةِ الإشاريّةِ– دالٌّ حركيٌّ، ومدلولٌ معنويٌّ، ويجمعُ هذا كلَّه معجمٌ خاصٌّ([19]).

والظّاهرُ أنّ هذه اللّغةَ تقومُ على مَلحَظِ الاعتياضِ، أعني فلسفةَ العينِ بدلَ الأذنِ([20])، وقدْ أشيرَ إلى أنّها قائمةٌ على التّدريبِ البَصريِّ على حركاتِ الشّفاهِ أثناءَ التّخاطبِ، ولها إشكاليّاتٌ، وقدْ أشارتْ الدّراساتُ أنّ ثلثَ الدّلالةِ قدْ يُستقى مِن قراءةِ الشّفاهِ للشّخصِ المتدّربِ الذّكيِّ، أمّا الباقي فهو محضُ استنتاجٍ([21])، والحقّ أنّ ثَمّ افتراقًا بينَ اللّغةِ الإشاريّةِ واللّغةِ المنطوقةِ في جهتَين أولاهما الكيّفيّةُ، وثانيتُهما البناءُ، أمّا في الكيفيّةِ فلا يظهرُ تعالقٌ جوهريٌّ بين الدّالِّ والمدلولِ؛ بين الأصواتِ والشّيءِ الذي تشيرُ إليه، أمّا اللّغةُ الإشاريّةُ ففيها رمزيّةُ مطابَقَةٍ، ومثالُ ذلك كلمةُ "قطار" المؤتلفةُ مِن أربعةِ حروفٍ مرسومةٍ، وهو بخلافِ ذلك في الحقيقةِ الخارجيّةِ لطولِه، أمّا في اللّغةِ الإشاريّةِ فلا بدّ مِن تضخيمِ حركةِ اليدَين وما شاكلها وفاءً بمظهرِه الخارجيِّ الضّخمِ.

أمّا في البناءِ فاللّغةُ المنطوقةُ تقومُ في هيئتِها على رصفِ بناءٍ متعاقبٍ، فثَمّ فونيماتٌ تتجمّعُ في مورفيماتٍ، والمورفيماتُ يعقبُها تراكيبُ، والتّراكيبُ يعقبُها جملٌ وهكذا دوالَيك، أمّا رصفُ لغةِ الإشارةِ فهو البناءُ المتزامنُ القائمُ على أساسِ التّنظيمِ في حيّزٍ مكانيٍّ، أي أنّ معنى المنطوقاتِ لا يُعيّنُ بالاعتمادِ على ترتيبِ الإشارةِ، بل بتزامنِها([22]).

([17]) انظر: نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، دار قباء، القاهرة، 2002م، 30.

([18]) انظر: سمير دبابنة، نافذة على تعليم الصم، مؤسسة الأراضي المقدسة (منشورات منظمة المبادرات "Initiatives" لتعليم الصم)، السلط، ط1، 1996م، 196.

([19]) انظر: ماجدة سيد عبيد، القاموس الإشاري للصم، ط1، نشر على نفقة المؤلفة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1992م.

([20]) انظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 198.

([21]) لنظر: دبابنة، نافذة على تعليم الصم، 198–199.

([22]) انظر: نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب، 29.

لغةُ الجسمِ في التّراثِ البلاغيّ:

الجاحظُ نموذجًا:

وفي "البيانُ والتّبيينُ" تلقى القارئَ مباحثاتٌ دالّةٌ على استشعارِ الجاحظِ أنّ للجسدِ لغةً صامتةً تنضافُ إلى اللّغةِ الصّائتةِ، والحقّ أنّ تلكم المباحثاتِ تنقسمُ إلى قسمَين؛ أمّا أوّلُهما فهو وقوفُ الجاحظِ على لَمَحاتٍ مِن لغةِ الجسدِ وِقفةَ المدقِّقِ لذاتِها، وأمّا ثانيهما فهو ورودُ هذه اللّمَحاتِ في ثِنْيِ عرضِه لرواياتٍ، أو أحداثٍ، أو أشعارٍ لم يقصدْ فيها إلى لغةِ الجسدِ قصدَ الدّارسِ والمُحلِّلِ كما هي الحالُ في القسمِ الأوّلِ.

لغةُ الجسمِ والبيانُ:

يعقدُ الجاحظُ بابًا في كتابِه موسومًا بـ "البيان"، مستشرفًا وجوهَه، معرِّجًا على دلالتِه وفروعِه، والنّاظرُ فيه يجدُ مفهومَ البيانِ عندَ الجاحظِ فضفاضًا يستغرقُ اللّفظيَّ وغيرَ اللّفظيِّ؛ ذلك أنّ كلَّ ما توسّل به المرءُ للإبانةِ والتّواصلِ يدورُ في فَلَكِ "البيانِ" عندَه، وعلى هذا، فاللّفظُ، إنْ كان مؤدِّيًا إلى معنى، ضربٌ مِن البيانِ، ولغةُ الجسدِ ضربٌ آخرُ مِنه، والإشارةُ بالثّوبِ كذلك أمرُها، ومُستصفى القولِ عندَه أنّه اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كشف لك قناعَ المعنى، وهَتَكَ الحجابَ دونَ الضّميرِ، "حتّى يفضيَ السّامعُ إلى حقيقتِه، ويهجمَ على محصولِه كائنًا ما كان ذلك البيان، ومِن أيِّ جنسٍ كان الدّليل، لأنّ مدارَ الأمرِ والغايةَ التي يجري إليها القائلُ والسّامعُ إنّما هو الفهمُ والإفهامُ، فبأيِّ شيءٍ بلغتَ الإفهامَ، وأوضحتَ عن المعنى، فذلك هو البيانُ في ذلك الموضعِ"([23]).

ثمّ يُحصي الجاحظُ دلالاتِ البيانِ عددًا، فيجدُها خمسًا لا تزيدُ ولا تنقصُ، فأوّلُها اللّفظُ، وثانيها الإشارةُ، وثالثُها العَقدُ، ورابعُها الخطُّ، وخامسُها الحالُ التي تسمَّى نِصبةً([24]). أمّا اللّفظُ فذائعٌ معروفٌ عمادُه الصّوتُ، وكذلك الخطّ عمادُه القلمُ، وأمّا العَقدُ فهو الحسابُ، وأمّا النِّصبةُ فهي الحالُ النّاطقةُ بغيرِ اللّفظِ، والمشيرةُ بغيرِ اليدِ، كالذي يظهرُ في خلقِ السّمواتِ والأرضِ، وفي كلِّ صامتٍ وناطقٍ، وجامدٍ ونامٍ([25]). أمّا الإشارةُ عندَه فهي بابُ القولِ على لغةِ الجسدِ عندَنا، والحقّ أنّ مفهومَ الإشارةِ عندَه قدْ يتعيّنُ بغيرِ سبيلٍ، لأنّ آلاتِ الإشارةِ كثيرةٌ كثيرةٌ، فمِن

([23]) الجاحظ، أبو عثمان عمرو، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م، 76/1.

([24]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 76/1.

([25]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 81/1، ويفسر محقق البيان العقد بأنه ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال هل حساب اليد.

ذلك الإشارةُ باليدِ والرّأسِ والعينِ والحاجبِ....([26])، والذي يجدرُ التّنبيهُ إليه، قبلَ الخوضِ في مَطلبِ القولِ على الإشارةِ عندَ الجاحظِ، أنْ يشارَ إلى أنّ هذا المفهومَ عندَ ابنِ رشيقٍ فضفاضٌ يتّسعُ لِما أورده الجاحظُ ولغيرِه مِن مباحثَ؛ إذْ إنّه يشتملُ على غرائبِ الشّعرِ ومُلَحِه، والتّفخيمِ، والتّلويحِ، والكنايةِ، والتّمثيلِ، والرّمزِ، واللّمحةِ، واللّغزِ، والتّعميةِ، والحركةِ الجسديّةِ التي هي موضعُ هذا البحثِ([27]).

جدلٌ بينَ الإشارةِ والعبارةِ:

لعلّه يحسنُ إقامةُ بونٍ بين ضربَين مِن الإشارةِ في بيانِ الجاحظِ، فقدْ تكونُ إشارةً عضويّةً جسميّةً مباشرةً، ومِن ذلك ما تقدّم مِن إشارةِ اليدِ والرّأسِ و... وقدْ تكونُ إشارةً بشيءٍ آخرَ سيأتي عليها حديثٌ بعدًا، كالعصا والثّوبِ والسّيفِ([28])، والحقّ أنّ الإشارةَ والعبارةَ عندَ الجاحظِ متلازمتانِ مترافدتانِ في الإبانةِ والبيانِ، وقدْ ألمح الجاحظُ إلى هذا جانحًا إلى أنّ حسنَ الإشارةِ باليدِ والرّأسِ هو "مِن تمامِ حسنِ البيانِ باللّسانِ مع الذي يكونُ مع الإشارةِ مِن الدّلِّ والشّكلِ والتّقتّلِ والتّثنّي واستدعاءِ الشّهوةِ وغيرِ ذلك مِن الأمورِ"([29]). ثمّ يقرّرُ الجاحظُ تلازمَ الإشارةِ والعبارةِ واقترانَهما معًا، فأنطقُ النّاسِ لا يستغني بمنطقِه عن الإشارةِ، وقدْ ضربَ مثالَين على ذلك أوّلُهما: جعفرُ بنُ يحيى البرمكيّ الذي كانَ مِن أنطقِ النّاسِ، فقدْ جمعَ الهدوءَ والتّمهّلَ والجزالةَ والإفهامَ المغنيَ عن الإعادةِ، ولوْ كان في الأرضِ ناطقٌ يستغني بمنطقِه عن الإشارةِ لاستغنى جعفرٌ عنها([30])، وثانيهما أبو شَمِر الذي ضربَ صفحًا عنها حتّى حينٍ، فقدْ كان إذا تكلّم لمْ يحرّكْ يدَيه ولا منكبَيه، ولمْ يقلّبْ عينَيه، ولمْ يحرّكْ رأسَه، وقدْ عيبَ عليه ذلك، "حتّى كأنّ كلامَه إنّما يخرجُ مِن صَدعٍ صخرةٍ"([31])، ومذهبُه أنّ المنطقَ ليس مِن حقِّه أنْ يستعانَ عليه بغيرِه، حتّى كلّمه أحدُهم، فاضطرّه بالحجّةِ، فغدا ممّنْ يسترفدُها، ويستعينُ بها على البيانِ والإفهامِ، فصار يحرّكُ يدَيه، ويحلُّ حبوتَه([32]).

([26]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

([27]) انظر: ابن رشيق ، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده، ط5، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1981م، 302/1-311.

([28]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

([29]) الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1.

([30]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 106/1.

([31]) الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.

([32]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 91/1.

الإشارةُ والرّتبةُ:

وكأنّا بالجاحظِ في درسِه "البيانَ" عامّةً، و"الإشارةَ" خاصّةً، يومِئُ إلى رتبِ الإشارةِ واللّفظِ، فتارةً يكونُ السّبقُ في الرّتبةِ للّفظِ، وتارةً يقعان موقعًا واحدًا مِن الرّتبةِ؛ إذْ إنّهما "شريكان، ونِعمَ العونُ هي له، ونعم التَّرجُمانُ هي عنه"([33])، وتارةً تكونُ رتبةُ الإشارةِ سبّاقةً لرتبةِ اللّفظِ؛ إذْ بِها يتخلّقُ المعنى، وتتعيّنُ المقاصدُ في سياقِها، فمبلّغُ الإشارةُ أبعدُ مِن مبلّغِ الصّوتِ، وهذا "بابٌ تتقدّمُ فيه الإشارةُ الصّوتَ"([34]).

الإشارةُ وخاصُّ الخاصِّ:

وهذا مِن المواضعِ التي تغدو فيها رتبةُ الإشارةِ أسبقَ مِن رتبةِ اللّفظِ عندَ الجاحظِ، والحقّ أنّ ذلك كثيرٌ في أيّامِنا هذه، فقدْ تتوارى اللّغةُ الصّائتةُ تعميةً وتغطيةً وإسرارًا لحاجاتٍ في النّفسِ شتّى، وتتجلّى اللّغةُ الصّامتةُ الدّالّةُ، فتكونُ ثَمّ إيحاءاتٌ وحركاتٌ مِن الحاجبِ والعينِ والكفِّ... وكلّ هذا يسبغُ عليه الجاحظُ وسمَ "خاصِّ الخاصِّ"، وهو، مِن وجهةٍ أخرى، لا ينعقدُ ولا يقومُ إلاّ بها، "ففي الإشارةِ بالطّرفِ والحاجبِ وغيرِ ذلك مِن الجوارحِ مَرفقٌ كبيرٌ، ومعونةٌ حاضرةٌ في أمورٍ يسترُها بعضُ النّاسِ مِن بعضٍ، ويخفونها مِن الجليسِ وغيرِ الجليسِ، ولولا الإشارةُ لم يتفاهمِ النّاسُ معنى خاصِّ الخاصِّ"([35]).

ومِن تجلّياتِ "خاصِّ الخاصِّ" حادثةٌ وقعتْ بينَ المأمونِ والجاريةِ في حضرةِ هارونَ الرّشيدِ، فقدْ كان المأمونُ يميلُ إليها وهو إذْ ذاك أمردُ، فأراد أنْ يتواصلَ معَها في حضرةِ أبيه، أو لنقلْ بعبارةِ الجاحظِ المتقدِّمةِ آنفًا: "في أمورٍ يسترُها بعضُ النّاسِ مِن بعضٍ"، فكانتْ سبيلُه إلى مبتغاه لغةَ الجسدِ تغطيةً وتعميةً لِما يريدُ أنْ يقولَه بإشارتِه، فوقع مِنه تقبيلٌ بالطَّرفِ، ووقع مِنها حياءٌ بالعينِ شُفِعَ بإنكارٍ بكسرِ الحاجبِ، وكانتْ قدْ "وقفتْ يومًا تصبُّ على يدِ الرّشيدِ مِن إبريقٍ معَها، والمأمونُ جالسٌ خلفَ الرّشيدِ، فأشار المأمونُ إليها كأنّه يقبّلُها، فأنكرتْ ذلك بعينَيها، وأبطأتْ في الصّبِّ على مقدارِ نظرِها إلى المأمونِ، وإشارتِها إليه، فقال الرّشيدُ: "ما هذا"!، ضعي الإبريقَ مِن يدِكِ، ففعلتْ"([36])، ثمّ تمضي الحكايةُ بعدَ أنِ التفتَ إلى ابنِه المأمونِ وكأنّه ميّتٌ لِما دخله مِن الخجلِ والجزعِ، فرحمه وضمّه إليه، فاعترف بحبِّه لها، فقال له: هي لك، ثمّ

([33]) الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

([34]) الجاحظ، البيان والتبيين، 79/1، وابن رشيق، العمدة، 309/1.

([35]) الجاحظ، البيان والتبيين، 78/1.

([36]) القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم، الآمالي، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 225/1.

قال المأمونُ في ذلك شعرًا معرّجًا فيه على ما وقع مِن تواصلٍ بلغةِ الجسدِ في مِضمارِ "خاصِّ الخاصِّ":

ظَبيٌ كتبتُ بطَرفي مِن الضّمير إليْه
قبّلتُه مِن بعيدٍ فاعتلّ مِن شفتَيْه
وردّ أخبثَ ردٍّ بالكسرِ مِن حاجبَيْه
فما برحتُ مكاني حتّى قدرتُ عليْه([37]).

لِنَرْجِعِ النّظرَ في بعضِ أمثلةِ الجاحظِ على "خاصِّ الخاصِّ":

وللقلبِ على القلبِ دليلٌ حينَ يَلقاهُ
وفي العينِ غنى للمرْ ءِ أنْ تنطقَ أفواهُ

وقال آخرُ:

العينُ تُبدي الذي في نفسِ صاحبِها مِن المحبّةِ أوْ ودٍّ إذا كانا
والعينُ تنطقُ والأفواهُ صامتةٌ حتّى تَرى مِن ضميرِ القلبِ تِبْيانا

وقال آخرُ:

تَرى عينُها عيني فتعرفُ وَحيَها وتعرفُ عيني ما بهِ الوحيُ يَرجِعُ

والظّاهرُ أنّ جلَّ ما ذكره الجاحظُ في مَعرِض حديثِه عن الإشارةِ وخاصِّ الخاصِّ مضمارُه العينُ الجارحةُ، ولعلّ في ذلك دلالةً على فضلِ العينِ في التّواصلِ والإبانةِ عن حواشي النّفوسِ([38])، وقدْ فسّر بعضُهم هذا بأنّ العينَين قارّتان في مركزٍ محوريٍّ مِن الجسمِ، ثمّ إنّ إنسانَ العينِ ينقبضُ وينبسطُ وفقًا لتباينِ موقفِ المرءِ وحالِه، فإذا ما غضبَ فإنّ إنسانَ عينِه سينقبضُ، والأمرُ بالضّدِّ إذا تباينتِ الحالُ، فقدْ يتّسعُ ليصلَ إلى أربعةِ أضعافِ حجمِه الأصليِّ، وقدْ تبيّن مِن اختباراتٍ عمليّةٍ ميدانُها لاعبو الورقِ المحترِفون أنّهم لمْ يكنْ لهمْ حظٌّ بالظّفرِ إلاّ قليلاً على خصومِهم الذين كانوا يَسترون عيونَهم بالنّظّاراتِ السّودِ؛ ذلك أنّها مِن الحواجبِ لإشاراتِ العينِ

([37]) انظر: القالي، الأمالي، 226/1.

([38]) من المصنفات التي تناولت العين ودلالاتها: Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhod, New York, 1975.

عامّةً، والبؤبؤِ خاصّةً، فلمْ يكنْ بمقدورِهم أنْ يلتمسوا مِن عيونِ خصومِهم إلماحةً، أو إشارةً، أو وِشايةً، تُعينُهم على تقديرِ مسارِ اللّعبِ([39]).

مُتفرّقاتٌ مجتمِعاتٌ عندَ الجاحظِ:

إفشاءُ السّلامِ بالعينِ:

وقدْ يحدثُ أحيانًا، وهذا ملحظٌ نعاينُه كثيرًا، أنْ يكونَ إفشاءُ السّلامِ بلغةِ الجسدِ كما هي الحالُ في لغةِ اللّسانِ، فمِن ذلك أداءُ السّلامِ باليدِ الملوِّحةِ، أو بالعينِ المُسلِّمةِ المنتسِبةِ، أو بِهِزّةِ الرّأسِ إلى الأسفلِ مع التّطامنِ قليلاً، ولعلّ لهذا المخوضِ فيه لُحمةً بخاصِّ الخاصِّ عندَ الجاحظِ، فقد ساق مثالاً مُبينًا عن ذلك بالعينِ المُسلِّمةِ في مقامِ لقاءِ العاشقَين في حضرةِ الأهلِ، وليس يخفى أنّ مقاماتِ الحرجِ الاجتماعيِّ تُؤْذنُ بأنْ تكونَ رتبةُ لغةِ الجسدِ "الإشارة" متقدّمةً على رتبةِ اللّفظِ وجوبًا في مثلِ تلكم المقاماتِ، ويمثّلُ الجاحظُ على ذلك بقولِ الشّاعرِ:

أشارتْ بطرفِ العينِ خيفةَ أهلِها إشارةَ مذعورٍ ولمْ تتكلّمِ
فأيقنتُ أنّ الطَّرْفَ قدْ قالَ مرحبًا وأهلاً وسهلاً بالحبيبِ المتيَّمِ([40]).

بَسطُ الوجهِ رسالةُ بِشرٍ:

ولهذه الإيماءةِ يدٌ في تواصلِ الضَّيفِ مع ضيفِه، فإذا ما تبدّتْ علائمُ التّلقّي والتّأنيسِ على وجهِ مَن يتلقّفُ ضيفَه فإنّ ذلك سيكونُ بمنزلةِ ما ينضافُ إلى ألفاظِ التّرحيبِ والإحسانِ، وقدْ يكونُ الأمرُ بالضّدِّ، فيعرفُ كلٌّ منّا أنّ ذاك راغبٌ عن استضافتِه وإنْ أظهرَ بلسانِه ما هو متجافٍ عمّا ورد علينا مِن وجهِه وحركاتِ جسدِه، وقد التفت الجاحظُ إلى هذا، "لأنّ العربَ تجعلُ الحديثَ والبَسطَ والتّأنيسَ والتّلقّيَ بالبِشرِ مِن حقوقِ القِرى ومِن تمامِ الإكرامِ"([41])، وقديمًا قالتِ العربُ:

أضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزالِ رحلِه ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخِصبُ للأضيافِ أنْ يكثرَ القِرى ولكنّما وجهُ الكريمِ خصيبُ([42]).

اليدُ وإشارةُ التّعيينِ:

([39]) Pease, Body Language, P. 134.

([40]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 219/1.

([41]) الجاحظ، البيان والتبيين، 10/1.

([42]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 11/1.

ولليدِ فضلٌ في تعيينِ المقصودِ تعيينًا يُغني عن ألفاظٍ متكاثرةٍ، كالمكانِ، أو الشّيءِ، أو الجهةِ، ومِن ذلك ما رود في خُطبةٍ لمصعبِ بنِ الزّبيرِ لمّا قدمَ العراقَ، فقد رُوي أنّه استفتح خُطبتَه بثلاثِ آياتٍ مِن التّنزيلِ العزيزِ، قاصدًا مِن كلِّ آيةٍ أنْ يصفَ بها بلدًا وأهلَه، متجافيًا عن ذكرِ البلدِ صراحةً، معوّلاً على إشارةِ اليدِ في تعيينِ المكانِ الذي ينبني عليه تعيينُ المعنى، قائلاً: "بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ "طسم، تلك آياتُ الكتابِ المُبين،...، إنّ فرعونَ عَلا في الأرضِ وجعل أهلَها شِيَعًا يستضعفُ طائفةً مِنهم يذبّحُ أبناءَهم ويستحيي نساءَهم إنّه كانَ مِن المفسِدين"، وأشارَ بيدِه نحوَ الشّامِ، "ونريد أنْ نمنَّ على الذين استُضْعفوا في الأرضِ ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهم الوارثين، وأشار بيدِه نحوَ الحجازِ، "ونمكّن لهم في الأرضِ ونري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما مِنهم ما كانوا يحذرون"، وأشار بيدِه إلى العراقِ([43]).

جِلسةُ المزدري المتراخي:

والجِلسةُ لها هيئاتٌ ودِلالاتٌ، فقدْ تَرِدُ مِنها دلالةٌ على أنّها جلسةُ المتراخي، أو أنّها جلسةُ المريضِ المُثقَلِ، وقدْ تكونُ جِلسةَ القلقِ المُستوفِزِ، أو المزدري مَن يقفُ وِجاهَه، وقدْ ورد في "البيان" وصفُ جلسةٍ لمعاويةَ ذاتِ دلالةِ ازدراءٍ لِمن يحاورُه، والظّاهرُ أنّها مؤتلفةٌ مِن غيرِ جارحةٍ وشكلٍ، ففيها تتضافرُ العينُ والرِّجلُ وهيئةُ الاتّكاءِ لتأديةِ معنى الازدراءِ والتّنقّصِ، وقدْ رواها الجاحظُ قائلاً: "قال عمرُو بنُ العاص: ما رأيتَ معاويةَ قطُّ متّكئاً على يسارِه، واضعًا إحدى رجلَيه على الأخرى، كاسرًا إحدى عينَيه، يقولُ للذي يكلّمُه: يا هَناه، إلاّ رحمتُ الذي يكلّمُه"([44]).

جِلسةُ الأنْوَكِ الأحمقِ:

وقد رسم الجاحظُ بكلماتِه حركةً جسديّةً تتساوقُ مع وسمِ صاحبِها بالأنْوَكِ الخائفِ، وعمادُها الجلوسُ في ناحيةٍ مِن البيتِ مع الانقباضِ والاشتمالِ، وفيها يقولُ: "...لمّا أُدْخِل على امرأتِه فرأتْ مِنه ما رأتْ مِن الجفاءِ والجهلِ، وجلسَ في ناحيةٍ منقبضًا مشتمِلاً..."([45]).

متمّماتٌ مساندةٌ:

([43]) انظر الخطبة: الجاحظ، البيان والتبيين، 300/2.

([44]) الجاحظ، البيان والتبيين، 302/2.

([45]) الجاحظ، البيان والتبيين، 225/2.

يشيعُ في درسِ لغةِ الجسدِ مَطلبٌ مِن البحثِ في المتمِّماتِ المسانِدةِ التي تُسمّى "الإكسسوارات"، كالنّظّارةِ والسّيجارةِ والسّيجارِ والقلمِ والهاتفِ والعصا([46])، والظّاهرُ مِن أمرِها أنّها تمدّنا بمعانٍ مخصوصةٍ؛ ذلك أنّ بعضَها توابعُ لأعضاءِ الجسدِ المومئةِ، وكواشفُ للحالاتِ النّفسيّةِ والذّهنيّةِ التي تعتري صاحبَها، فهيئةُ حَملِ المرءِ قلمَه لها دلالةٌ على أنّه كتبَ، أو يكتبُ، أو يفكّرُ مُطرِقًا مُمسِكًا بقلمِه، وقدْ يصلُ الأمرُ أحيانًا إلى عَتَبةِ قضمِ القلمِ([47]). ولنضربْ مثالاً سريعًا مِن تراثِنا العربيِّ على دلالةِ بعضِ تلكم المتمِّماتِ المسانِدةِ، فالحجّاجُ لمّا خرج يريدُ العراقَ واليًا عليها، بدأ بالمسجدِ فدخله، فقال لمّا كشف عن وجهِه:

أنا ابنُ جَلا وطَلّاع الثّنايا متى أضعِ العِمامةَ تعرفوني([48]).

والذي أراده الحجّاجُ –ومِن قبلِه القائلُ ومَن أتى مثلَ هذه الحركةِ– التّهديدُ والوعيدُ المتحقّقانِ مِن حركةٍ جسديّةٍ للمتمِّماتِ المساندةِ، وهي العِمامةُ، ودلالةُ اطِّراحِها المفضي إلى أنْ يغدوَ صاحبُها حاسرَ الرّأسِ هي الجِدُّ والتّشاغلُ عنْها بهم.

والظّاهرُ أنّ الجاحظَ في "البيان" قد التفتَ إلى هذه المتمِّماتِ المسانِدةِ، ومِن ذلك تعريجتُه على الإشارةِ التي قدْ تقعُ بالثّوبِ وبالسّيفِ، فقدْ يتهدّدُ رافعُ السّيفِ والسّوطِ، فيكونُ ذلك زاجرًا، ومانعًا رادّاً، وقدْ يكونُ وعيدًا وتحذيرًا([49]). وفي حديثِ الجاحظِ عن المَخاصرِ والعصيِّ يشيرُ إلى أنّها مِن المتمِّماتِ التي تؤدّي معانيَ تنضافُ إلى الألفاظِ؛ إذْ إنّ المخاصرَ والعصيَّ مِن مرافقِ الخُطبةِ، وقدْ طعنتِ الشّعوبيّةُ على العربِ، بكلامٍ مستكرَهٍ يطولُ، أخذَهم المخصرةَ والقناةَ والقضيبَ والإشارةَ به([50])، وقدْ ردّ عليهم الجاحظُ محاميًا عن وجهةِ نظرِه فيها، ووجاهةِ استعانةِ العربِ بها في الإبانةِ والبيانِ، ومِن ذلك أنّ العربَ كانتْ تشيرُ بالعَصا والقَنا لتقومَ مقامَ اليدِ، وقدْ تكونُ موحيةً بأشياءَ أخرى، وقدْ تجلّى ذلك –كما يرى الجاحظُ– في قولِ الشّاعرِ:

مجالسُهم خفضُ الحديثِ وقولُهم إذا ما قَضَوا في الأمرِ وحيُ المخاصرِ([51]).

ثمّ يقرّرُ الجاحظُ للخطابةِ أصولاً وآدابًا يجبُ استنانُها، ومِن ذلك أنّ الإغراقَ في النّظرِ في عيونِ النّاسِ عيّ، ومسَّ اللّحيةِ هُلْكٌ([52])، والارتعاشَ والرِّعْدةَ والبُهْرَ عيبٌ([53])، والإفراطَ في

([46]) انظر: باكو، لغة الحركات، 70– 75، و Pease, Body Language, P.155-162

([47]) تربط باكو هذه الحركة بالسعادة والانفعال أحيانا. انظر: لغة الحركات، 70.

([48]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 308/2

([49]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 77/1.

([50]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 383/1.

([51]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 370/1

الحركةِ مذمومٌ، والحقّ أنّ الجاحظَ في هذه الوصايا يلتفتُ، على نحوٍ معجبٍ، إلى بعضِ ما ورد في هذا الدّرسِ عندَ الغربيّين، فهم يقرِّرون أنّ مكانةَ الشَّخصِ الاجتماعيّةَ تفعلُ في تحديدِ عددِ حركاتِه وإيماءاتِه في أثناءِ كلامِه، فالحركاتُ الجسديّةُ والإيماءاتُ عندَ الرّجلِ ذي المكانةِ المرموقةِ في الغالبِ أقلُّ مِنها عندَ مَن هو دونَه في الثّقافةِ والمهارةِ([54])، ولذا فإنّ عددَ الحركاتِ الجسديّةِ مقترنٌ بدرجةِ الثّقافةِ والمنزلةِ عند Pease، كما أنّه عيبٌ إذا أفرطَ فيه الخطيبُ، فهو صاحبُ ثقافةٍ ومنزلةٍ رفيعتَين.

"لغةُ الجسمِ" في التّراثِ اللّغويّ:

ابنُ جنّي نموذجًا:

جلُّ ما ورد في "خصائصِ" ابنِ جنّي مِن مدارساتٍ يدورُ حولَ المعنى، وقد التفتَ في مواضعَ متفرّقةٍ إلى أنّ للمعنى روافدَ ومحدداتٍ قدْ تكونُ لفظيّةً خالصةً، وقدْ تكونُ غيرَ لفظيّةٍ، وليس يخفى على ذي تأمّلٍ أنّ الرّوافدَ اللّفظيّةَ ممّا ينتسبُ إلى اللّغةِ الصّائتةِ، وأنّ التي هي غيرُ لفظيّةٍ ممّا ينتسبُ إلى الصّامتةِ، ومِن أمثلةِ الأولى في خصائصِه – وهي كثيرةٌ جدّاً– بابُ القولِ على الإعرابِ، فهو "الإبانةُ عن المعاني بالألفاظِ، ألا تَرى أنّك إذا سمعتَ "أكرمَ سعيدٌ أباه"، و"شكر سعيداً أبوه"، علمتَ برفعِ أحدِهما، ونصبِ الآخرِ، الفاعلَ مِن المفعولِ، ولو كان الكلامُ شرجًا واحدًا لاستبهم أحدُهما مِن صاحبِه"([55]). ومِن أمثلةِ الثّانيةِ –أعني المحدِّداتِ غيرَ اللّفظيّةِ– ما البحثُ معقودٌ عليه، وهو لغةُ الجسدِ وسهمتُها في الإبانةِ، والمُعجبُ حقّاً أنّ ابنَ جنّي لم يكنْ يفزعُ إلى السّياقِ البنيويِّ المؤتلفِ مِن المستوى الصّوتيِّ، والصّرفيِّ، والتّركيبيّ، والمعجميِّ فقط، بل استشرف، في مواضعَ متفرّقةٍ، استشرافةَ المدقّقِ المتبصّرِ، بُعدًا آخرَ يفعلُ في تشكيلِ وتعيينِه.

ابنُ جنّي والاعتياضُ:

يعرّجُ ابنُ جنّي على ظاهرةِ الحذفِ مِن السّياقِ البِنيويِّ قائلاً بصحتِّها، مقرِّرًا أنّ الحذفَ قدْ يكونُ مِن نصيبِ الجملةِ والمفردِ والحرفِ والحركةِ، ولكنّه لا يُلقي حكمَه هذا على عواهنِه غيرَ مقيَّدٍ ولا مخصَّصٍ؛ إذ ليس ثمّ بدٌّ مِن دليلٍ يُعتاض به عن المحذوفِ، وإلاّ تخلّق التّفاصلُ،

([52]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 44/1.

([53]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 133/1.

([54]) انظر: Pease, Body Language, P. 18.

([55]) ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م، 36/1.

وامّحى التّواصلُ، "وكان فيه ضربٌ مِن تكليفِ علمِ الغيبِ في معرفتِه"([56]). ولمعرفةِ المحذوفِ قرائنُ ودلائلُ هاديةٌ يُلْمِحُ إليها في بابِه ذاك، ومِنها سياقُ الحالِ وما يكتنفُ الحدثَ الكلاميَّ مِن أنظارٍ خارجيّةٍ وأحوالٍ، ومِنها كذلك لغةُ الجسدِ، ومثالُه الذّائعُ المشهورُ في ذلك حذفُ الصّفةِ وقيامُ قرائنَ متضافرةٍ مقامَها اعتياضًا وإبانةً، كالتّنغيمِ والحركةِ الجسميّةِ التي لها دلالةٌ توافقُ دلالةَ الصّفةِ المحذوفةِ، ومِن ذلك قولُه: "سألناه فوجدناه إنسانًا"!. والحقّ أنّ هذه العبارةَ، منسلخةً مِن سياقِها، قدْ تغدو مِن المُشكِلِ المتأبّي عن الدّلالةِ، ولكنّها، عندَ استشرافِ سياقِها الحيِّ بما يشتملُ عليه مِن حركاتِ الجوارحِ وهيئةِ التّنغيمِ ودرجةِ الصّوتِ، كلُّ ذلك يفعلُ في تعيينِ معنى الصّفةِ المحذوفةِ، ولذا قدْ يكونُ المحذوفُ: إنسانًا كريمًا مِفضالاً، فالحركةُ الجسميّةُ، ولتكنْ حركةَ الكفّ مع الذّراعِ، أو تعابيرَ الوجهِ والجبينِ، ستشي بالمعنى المتعيّنِ، وستقومُ مقامَ الصّفةِ المحذوفةِ.

وقدْ يكونُ المحذوفُ بالضّدِّ، فتغدو الحركاتُ الجسميّةُ دالّةً على صفةٍ أخرى غيرِ المتقدّمةِ، كتقطيبِ الوجهِ والامتعاضِ وإنغاضِ الرّأسِ، "وكذلك إذا ذممتَه ووصفتَه بالضّيقِ، قلتَ: سألناه وكانَ إنسانًا! وتزوّي وجهَك وتقطّبُه، فيغني ذلك عن قولِك: إنسانًا لئيمًا أو لَحِزًا أو مُبخّلاً أو نحوَ ذلك"([57]).

ومِن الأمثلةِ التي تسيرُ بركبِ ما تقدّم قولُه: "سير عليه ليلٌ"، وأيّ ليلٍ هو؟. كلامٌ مجتزَأٌ لا نندى مِنه بطائلٍ وهو على هذه الهيئةِ، فقد حُذِفَ ركنٌ رئيسٌ مِن أركانِه، ولذلك كان لا بدَّ مِن اعتياضٍ يسدّ هذا الفراغَ الوظيفيَّ البنيويَّ، فتتضافرُ اللّغةُ الصّامتةُ مع الصّائتةِ للإبانةِ والدّلالةِ على المحذوفِ، والحقّ أنّ التّنغيمَ وحدَه في مثلِ هذا لا يغني عن أداءِ المعنى، ولكنّه يتضافرُ مع حركاتٍ جسميّةٍ متعدّدةٍ قد تقومُ مقامَ الصّفةِ المحذوفةِ، فقدْ يكونُ اللّيلُ قصيرًا يسيرًا فيأتى بحركاتٍ لها دلالةٌ كدلالةِ هذه الصّفةِ المحذوفةِ، وقدْ يكونُ طويلاً كليلِ امرئ القيسِ، فيأتي بأخرَ حمّالاتٍ لدلالةٍ مطابقةٍ لدلالةِ المحذوفِ الكلاميِّ؛ "وذلك أنّك تحسُّ في كلامِ القائلِ لذلك، مِن التّطويحِ، والتّطريحِ، والتّفخيمِ، ما يقومُ مقامَ قولِه: طويلٌ أو نحوُ ذلك"([58]).

ابنُ جنّي وإيماءةُ العينِ:

([56]) ابن جني، الخصائص، 362/2.

([57]) ابن جني، الخصائص، 373/2.

([58]) ابن جني، الخصائص، 373/1.

وقف ابنُ جنّي عندَ بابِ القولِ على الفصلِ بينَ "القولِ والكلامِ" معرِّجًا على تقاليبِ كلٍّ واحدٍ، جانحًا إلى أنّهما يتعاوران، فيوقَعُ كلّ واحدٍ مِن الكلامِ والقولِ موقعَ صاحبِه([59])، وفي ثِنْيِ عرضِه لهذا المَلْحظِ التفتَ إلى أنّ اللّغةَ الصّامتةَ قدْ تؤدّي معانيَ كما اللّغةِ الصّائتةِ مستشهدًا بقولِ الشّاعرِ:

وقالتْ له العينانِ: سمعًا وطاعةً وأبدتْ له كَمثلِ الدّرِّ لمّا يُثقَّبِ

وقدْ تلمّس ابنُ جنّي دلالةَ "قولِ العينَين" مشيرًا إلى التّجوّزِ الذي يكتنفُ هذا التّركيبَ؛ إذْ لا قولَ لهما على الحقيقةِ، ولكنّ لغةَ الجسمِ عامّةً، وهيئةَ العينَين في هذا السّياقِ خاصّةً، قدْ أذنتا بتحقّقِ معنى الطّاعةِ والولاءِ؛ إذْ كان منهما قولٌ يُستقى لا بالصوتِ، وإنّما بالصّمتِ، فقدْ قالتْ له العينانِ سمعًا وطاعةً، ويشرحُ ابنُ جنّي ما ألفاه مِن معنى متخلّقٍ مِن لغةِ الجسدِ في هذا السّياقِ بعبارةٍ دالّةٍ مُعْجِبةٍ قائلاً: "فإنّه، وإنْ لمْ يكنْ منهما صوتٌ، فإنّ الحالَ آذنتْ بأنْ لو كان لهما جارحةُ نطقٍ لقالتا: سمعًا وطاعةً، وقدْ حرّر هذا الموضعَ وأوضحه عنترةُ بقولِه:

لَو كانَ يَدري ما المحاورةُ اشْتكى ولكانَ، لوْ علمَ الكلامَ، مُكلّمي"([60]).

الإشمامُ قراءةُ الشّفتَين:

وفي حديثِ ابنِ جنّي عن اختلاسِ الحركةِ يقفُ عندَ الإشمامِ الذي هو أنْ "تضمَّ شفتَيك مِن غيرِ صوتٍ، وهذا يدركُه البصيرُ دونَ الضّريرِ"([61])، والذي يظهرُ مِن هذا التّعريفِ أنّ الإشمامَ ضربٌ مِن الحركاتِ الجسميّةِ عامّةً، وحركةِ الشّفاهِ خاصّةً، وأنّ له دِلالةً نحويّةً، وقدْ جلّى هذه الظّاهرةَ مستندًا إلى قولِ الشّاعرِ:

مَتى أنامُ لا يؤرّقُني الكَرِي ليلاً ولا أسمعُ أجراسَ المَطِي

مُلْمِحًا إلى أنّ القائلَ ارادَ إشمامَ القافِ في "يؤرّقني"، "ومعلومٌ أنّ هذا الإشمامَ إنّما هو للعينِ لا للأذنِ"([62])، ولو كان فيه حركةٌ إعرابيّةٌ لاختلّ الوزنُ ولصار مِن الكاملِ، والأبياتُ كلُّها مِن الرَّجزِ، وحَذفُ الحركةِ، أو اختلاسُها، قدْ لا يستقيمُ إلاّ بدليلٍ، ولذا وقع التّضافرُ بين رافدَي المعنى: الرّافدِ الصّامتِ، والرّافدِ الصّائتِ، فاطُّرِحت الحركةُ الإعرابيّةُ، وقامتِ الشّفاهُ مقامَها لتقولَ إنّ القافَ مرفوعةٌ، "فإذا قنعوا مِن الحركةِ بأنْ يومئوا إليها بالآلةِ التي مِن عادتِها أنْ تُستعمَلَ في النّطقِ بها مِن غيرِ أنْ يُخرجوا إلى حسِّ السّمعِ شيئًا مِن الحركةِ، مُشبَعةً ولا مختلَسةً، أعني

([59]) انظر: ابن جني، الخصائص، 1/5-34.

([60]) ابن جني، الخصائص، 1/25.

([61]) الأنباري، الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، أسرار العربية، ط1، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، 1995م، 353.

([62]) ابن جني، الخصائص، 1/74.

إعمالَهم الشّفتَين للإشمامِ في المرفوعِ بغيرِ صوتٍ يُسمَعُ هناك، ولمْ يبقَ وراءَ ذلك شيءٌ يُستدَلُّ به على عنايتِهم بهذا الأمرِ"([63]).

مقولاتٌ كلّيّةٌ:

الوجوهُ المشاهَدةُ:

يُلحُّ ابنُ جنّي إلحاحًا بيّنًا أمرُه على سُهمةِ الوجوهِ المشاهَدةِ في التّواصلِ والإبانةِ؛ إذْ إنّها دليلٌ على ما في النّفوسِ، والحقّ أنّ كلمةَ "الوجوه" فضفاضةٌ تستغرقُ حركاتٍ جسميّةً وجوارحَ متعدّدةً، ففي الوجهِ العينُ، والعينُ في دلالاتِها الحركيّةِ وإيماءاتِها عيونٌ، وهناك الخدّ، والفمُ، واللّسانُ، والحاجبُ، والشّفاهُ، وكلّ هذه الجوارحِ ممّا يمكنُ أنْ يقدّمَ معنى بلْ معانيَ.

وأوّلُ مقولاتِ ابنِ جنّي روايةٌ عن بعضِ مشايخِه مفادُها: "وأنا لا أحسنُ أنْ أكلّمَ إنسانًا في الظّلمةِ"، وأحسبُ أنّه في هذه العبارةِ يصدرُ عن وعيٍ بفضلِ لغةِ الجسدِ في التّواصلِ، ففي الظّلمةِ وانطفاءِ النّورِ تنطفئُ هذه اللّغةُ المُبينةُ التي ترفدُ المعنى، وتجلّي المقاصدَ، وممّا هو قريبٌ مِن قولةِ ابنِ جنّي هذه أنّ المُحْدَثين الذي يتنالون لغةَ الجسدِ بالدّرسِ والتّحليلِ الدّلاليِّ يقرّرون أنّ مِن أنجعِ السّبلِ في التّواصلِ واستشفافِ معاني حركاتِ الجسدِ ظهورَ جميعِ الجسدِ؛ إذْ إنّ مواراةَ جزءٍ مِنه قدْ تفضي إلى مواراةِ جزءٍ مِن المعنى، وخيرُ ما يُتمثَّلُ به في هذا المقامِ قاعدةٌ عريضةٌ للشّرَطيِّ المحقّقِ مفادُها أنّ على المتَّهمِ أنْ يبديَ جميعَ جسدِه "جوارحِه" في التّحقيقِ، وأنْ يُجْعَلَ في مكانٍ رحبٍ، وأنْ يُسلَّطَ عليه ضَوءٌ ليكونَ جسمُه في مواجهةٍ ومشاهَدةٍ كاملتَين مع المحقّقِ، فإذا هو زاغَ عن الحقيقةِ في لفظِه، فلعلّ في جوارحِه وهيئاتِ جسدِه وحركاتِه ما يفضحُ هذا الزّيغَ. ولعلّ هذا، مِن وجهةٍ أخرى، يلتقي، في وجهٍ مِنه بلْ في وجوهٍ، مع مقولةِ ابنِ جنّي: "وأنا لا أحسنُ أنْ أكلّمَ إنسانًا في الظّلمةِ"؛ ذلك أنّ الحدثَ الكلاميَّ سيفقدُ كثيرًا أو قليلاً منْ دلالاتِه التي لا تُستَقى مِن الرّافدِ الصّائتِ فقط، "أفلا تَرى إلى اعتبارِه بمشاهدةِ الوجوهِ، وجعلِها دليلاً على ما في النّفوسِ، وعلى ذلك قالوا: ربّ إشارةٍ أبلغُ مِن عبارةٍ"([64]).

بينَ استماعِ الأذنِ ومقابلةِ العينِ:

يأبى ابنُ جنّي أنْ يكونَ استماعُ الأذنِ مُغنيًا عن مقابلةِ العينِ، مُجزئًا عنْه، ولو كانَ ذلك كذلك لَما تكلّف القائلُ، ولَما كلّف صاحبَه الإقبالَ عليه، والإصغاءَ له([65])، وفي ذلك دلالةٌ على

([63]) ابن جني، الخصائص، 330/2.

([64]) ابن جني، الخصائص، 248/1، وانظر مقولة Pease في كتابه Body Language, P. 22-23.

([65]) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.

أنّ اللّغةَ الصّائتةَ لا تقدّمُ المعنى الكلّيَّ، بلْ –كما يظهرُ مِن ثنائيّةِ ابنِ جنّي المُعْجِبةِ القائمةِ على استماعِ الأذنِ ومقابلةِ العينِ– تتضافران معًا خدمةً للمعنى والإبانةِ، ويسندُ مذهبَه هذا باسترفادِ دلالةِ "العينِ" الجارحةِ النّاطقةِ بالصَّمتِ، فقدْ يسمعُ المرءُ كلامَ مودّةٍ معسولاً، وللعينَين وشايةٌ تدحضُ القولَ فتجعلُه بالضّدِّ، ولذلك كلِّه احتجَّ ابنُ جنّي بقولِ الشّاعرِ مستشرفًا سُهمةَ العينِ في الإبانةِ:

العينُ تبدي الذي في نفسِ صاحبِها مِن العداوةِ أوْ ودٍّ إذا كانا([66]).

ولعلّ هذا يفضي إلى الوقوفِ عندَ ثنائيّةٍ أخرى في "الخصائص"، وهي "الجدلُ بينَ الإشارةِ والعبارةِ"، فقدْ ضربَ مثالاً دالاً على أنّ المرءَ قدْ يقعُ في نفسِه معنى باعثُه دلالةُ الإشارةِ لا العبارةِ، "حتّى لوْ حلف مِنهم حالفٌ على غرضٍ دلّتْه عليه إشارةٌ لا عبارةٌ، لكان عند نفسِه، وعندَ جميعِ مَن يحضرُ حالَه، صادقًا فيه، غيرَ متَّهمِ الرّأيِ والنّحيزةِ والعقلِ"([67]).

بينَ المُخْبَرِ والمُعايِن:

ولعلّه مِن بدهيِّ القولِ إنّ معاينةَ الحدثِ الكلاميَّ وأقطابه تؤْذنُ بتحقّقِ دلالةِ الحدثِ الكلاميِّ الكلّيّةِ في الكثيرِ الغالبِ، ولكنّ هذا الحدثَ الكلاميَّ قدْ يفقدُ بعضَ دلالاتِه عندَ نقلِه، ومِن هنا قالتِ العربُ قبْلاً، وقالها ابنُ جنّي بعْدًا: "ليس المُخبَرُ كالمُعايِن"؛ ذلك أنّ ثَمّ أحوالاً شاهدةً بالقصودِ، حالفةً على ما في النّفوسِ([68])، ومِن ذلك حادثةُ "صكِّ الوجهِ" التي هي حكايةُ شكايةِ امرأةٍ على لسانِ شاعرٍ:

تقولُ –وصكّتْ وجهَها بيمينِها– أبعليَ هذا بالرَّحى المُتقاعسُ؟!

وقد علّق عليها ابنُ جنّي مستشفّاً فضلَ روايةِ هذه الحركةِ الجسميّةِ في تعزيزِ المعنى، فقدْ جُعلتْ هذه الحركةُ الجسميّةُ كالمَنْبَهةِ على فَرْطِ التّعجّبِ والإنكارِ والتّعاظمِ، ولنا أنْ نتصوّرَ أنّ ثَمّ مُخبَرًا، وأنّ ثَمّ مُعاينًا لهذا الحدثِ الكلاميِّ، فمَن ذا الذي يقنعُ اللّغويَّ، أو ابنَ جنّي مِن قبلُ، أنّ دلالةَ الحدثِ القارّةَ في نفسِ المُعاينِ هي كالتي عندَ المُخبَرِ؟!؛ إذْ إنّ المعاينَ قدْ كانَ مِن شأنِه أنّه سمعَ الصّائتَ وعاينَ الصّامتَ، أمّا المُخبَرُ فلم يكنْ له حظٌّ إلاّ بالوصفِ والتّمثيلِ مِن الصّامتِ، "فلو قالَ حاكيًا عنها: أبعليَ هذا بالرّحى المتقاعسُ– مِن غيرِ أنْ يذكرَ صكَّ الوجهِ– لأعلمنا أنّها كانتْ متعجّبةً مُنكِرةً، لكنّه لمّا حكى الحالَ، فقالَ: "وصكّتْ وجهَها" عُلِم بذلك قوّةُ إنكارِها، وتعاظمُ الصورةِ لها. هذا مع أنّك سامعٌ لحكايةِ الحالِ، غيرُ مشاهدٍ لها، ولو

([66]) انظر: ابن جني، الخصائص، 248/1.

([67]) ابن جني، الخصائص، 249/1.

([68]) انظر: ابن جني، الخصائص، 246/2.

شاهدتَها لكنتَ بها أعرفَ، ولِعِظَمِ الحالِ في نفسِ تلك المرأةِ أبينَ،...، ولو لمْ ينقلْ إلينا هذا الشّاعرُ حالَ هذه المرأةِ بقولِه: وصكّتْ وجهَها، لمْ نعرفْ به حقيقةَ تعاظمِ الأمرِ لها"([69]).

روايةُ الحركةِ وحركةُ الرّوايةِ:

وقدْ يحدثُ أحيانًا أنْ يسردَ الرّاوي قصّةً، أو حديثًا، أو حدثًا كلاميّاً، فيكونَ أمينًا لِما نَقَلَ وحَفظ، فيُسيّرُ روايةَ الحدثِ الكلاميِّ أو الحديثِ على ما سارتْ عليه غيرَ حائدةٍ عن القصدِ، ولكنّه قدْ يقفُ عندَ هيئاتٍ مخصوصةٍ في الحدثِ الكلاميِّ الذي عاينه، فيعْسُرُ عليه أنْ يرويَها كما جاءتْ، كأنْ تكونَ حركةً جسميّةً، أو تنغيمًا معيّنًا، أو ما هو قريبٌ مِن ذَيْنِكَ ممّا لا يظهرُ إلاّ في الحدثِ الكلاميِّ الحيِّ، وبذا يقعُ تحوّلٌ في حركةِ الرّوايةِ التي يأتينا بها ذاك الرّاوي الأمينُ، فيستعينُ على تلكم الهيئاتِ المخصوصةِ بروايةِ الحركةِ بخاصِّ لفظِه؛ إذْ ليس بمُكْنتِه في روايتِه عامّةً، والمكتوبةِ خاصّةً، أنْ ينقلَ تلك الهيئاتِ المرئيّةَ، وهكذا ينزاحُ في حركةِ الرّوايةِ إلى روايةِ الحركةِ، تحقيقًا للنّصِّ، ورسمًا للّغةِ الجسميّةِ الحركيّةِ التي كان قدْ رآها فوفّاها حقَّها في التّغطيةِ. إخالُ أنّ هذا المتقدِّمَ يعوزُه فضلُ بيانٍ وتجليةٌ. لنرجعِ النّظرَ في بعضِ الأحاديثِ الشّريفةِ التي كان فيها رسولُ الله – صلّى الله عليه وسلّم– يستعينُ على تأديةِ مرادِه الشّريفِ بالصّامتِ والصّائتِ:

حركةُ التّلازمِ والصّحبةِ:

"أنا وكافلُ اليتيمِ في الجنّةِ هكذا، وأشار بالسّبّابةِ والوُسطى... "([70]).

لعلّه يحسنُ أنْ يسرَّحَ الخاطرُ لنتخيّلَ أنّ سامعًا سمع قولَ الرّسولِ الكريمِ منسلخًا مِن سياقِه، غيرَ مخصَّصٍ بالحركةِ الجسميّةِ المعيِّنةِ للدّلالةِ أو الدّلالاتِ، أحسبُ أنّ نصيبَه مِن التّواصلِ معَه سيكونُ في أسفلِ سلّمِ درجاتِ الإبانةِ، فما المتعيّنُ مِن "هاتَين"؟ وإلى أيِّ وجهةٍ يرمي بهاتَين، وأنّى لنا باستشرافِ مقصودِها إلاّ إذا كان ذلك مِن قِبَلِ رمي النّظرِ في تكهُّنٍ وتخطّفٍ، ومِن هنا يتخلّقُ في الخاطرِ ثانيةً وثالثةً ورابعةً أنّ الرّسالةَ في شطرٍ كبيرٍ مِنها لا تقومُ في دلالتِها الكلّيّةِ على ظاهرِ اللّفظِ، وأنّ النّصّ عندَما ينقَلُ بعْدًا، أو عندما يتقادمُ به العهدُ، فيصيرُ معمَّرًا قدْ تغافل عليه الزّمانُ، يفقدُ قليلاً أو كثيرًا مِن محمولاتِه الدّلاليّةِ، ومرامي صاحبِه الأوّلِ.

([69]) ابن جني، الخصائص، 247/1.

([70]) انظر الحديث: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط3، تحقيق قاسم الرفاعي، دار الأرقم، بيروت، 1997م، باب الطلاق، 103/7، وأحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، د.ت، 375/2.

أمّا الحديثُ الشّريفُ في سياقِه الحيِّ فلمْ يكنْ ذلك كذلك فيه، لأنّ النّظارةَ وشهودَ حضرتِه الشّريفةِ رأَوا حركةً جسميّةً أفضتْ إلى تعيّنِ المعنى على وجهٍ مِن الإحكامِ، وهو معنى الصّحبةِ والتّلازمِ، ولمّا جاء الرّاوي في حركةِ روايةِ الحديثِ لمْ يجدْ بدّاً مِن روايةِ الحركةِ؛ إذ هي عمادُ الحديثِ، وعليها عقدُ الكلامِ، فكان ذلك بتمثّلِه حركتَه الشّريفةِ التي عمادُها تلازمُ السّبّابةِ والوسطى واقترانُهما معًا، ليكونَ حظُّ كافلِ اليتيمِ كما كانَ حظُّ سبّابتِه ووسطاه الشّريفتَين مِن تلازمٍ، فرُويتْ الحركةُ بالكلماتِ تجليةً وتحقيقًا للمعنى المرادِ، فأضيف على السّياقِ الشّريفِ ألفاظٌ ذاتُ دلالةٍ توافقُ دلالةَ "الحركة"؛ إذْ إنّ المعوَّلَ عليه هو المعنى، وطرقُ تحصلِّه، وروافدُ تغذيتِه متكاثرةٌ متعالقةٌ.

حركةُ تعيينِ المكانِ والجهةِ:

قال رسولُ الله –صلّى الله عليه وسلّم–: "...التّقوى ههنا، وأشار بيدِه إلى صدرِه ثلاثَ مرّاتٍ..."([71])، والذي يظهرُ أنّ هذا الحديثَ الشّريفَ في أصلِه المتقادمِ يتردّدُ بين قطبَين: لفظيٍّ تُستقى مِنه دِلالةٌ، وآخرَ حركيّ تُستقى مِنه دلالةٌ أيضًا، وقدْ كان مَن حضر مجلسَه الشّريفَ ذاك مُدرِكًا لِما أراده –صلّى الله عليه وسلّم– مستعينًا على تعيينِ المعنى المرادِ بالسّياقِ بمعناه العريضِ: الحاليِّ والمقاليِّ، وليس يخفى أنّ حركتَه الجسديّةَ هى التي عيّنتِ المعنى وخصّصتْه، ولمّا سار الحديثُ بينَ النّاسِ، ولمّا تناقله الرّواةُ، ولمّا انسلخ مِن سياقِه الحيِّ –لمّا كان ذلك كذلك– كان مبدأُ الاعتياضِ مَطلبًا رئيسًا مؤسِّسًا لتعيينِ الدّلالةِ للاّحقين، فهم ليسوا شهودَ الحضرةِ تلك، لا ولا مِن الذين عاينوا حركتَه الشّريفةَ التي جاءتْ لتعيينِ الجهةِ والمكانِ، ولذا اعتاضَ الرّاوي في روايتِه الحديثَ عن "الحركةِ" بالرّوايةِ، ولعلّ هذا يُؤْذنُ بالوقوفِ عندَ مقولةِ ابنِ جنّي: "وليس المُخبَرُ كالمعاينِ".

وقريبٌ مِن هذا، أعني حركةَ تعيينِ المكانِ باليدِ، ما ورد عن رجلٍ خطب لمّا أقام معاويةُ الخطباءَ لبيعةِ يزيدَ ابنِه، فقال: "هذا أميرُ المؤمنين، وأشار بيدِه إلى معاويةَ، فإنْ ماتَ فهذا، وأشار إلى يزيدَ، فمَن أبى فهذا، وأشار إلى السّيفِ"([72]). وقد جعل ابنُ رشيقٍ هذه الحادثةَ تحتَ بابِ الإشارةِ، وحُقّ لها ذاك، واللاّفتُ للخاطرِ أنّ مَن شهد الخُطبةَ تلك لفظًا وسياقًا كان قدْ

([71]) انظر الحديث: أحمد بن حنبل، المسند، 277/2، والنووي، محيي الدين يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، ط3، دار القلم، بيروت، د.ت، باب تحريم ظلم المسلم، 356/15.

([72]) انظر: ابن رشيق، العمدة، 310/1.

استغنى عن شرحِ الرّاوي لها، لأنّه بمشاهدتِه حركةَ اليد، أو لنقلْ إشارةَ التّعيينِ، تتّجهُ نحوَ المقصودِ أدرك المعنى، فأغنتْ الإشارةُ عن قولِه: هذا أميرُ المؤمنين معاويةُ، فإنْ مات فهذا يزيدُ مكانَه، ومَن أبى فهذا السّيفُ له بالمرصادِ. ولمّا جاء الرّاوي مِن بعدُ لمْ يجدْ بدّاً مِن أنْ يعدّلَ في حركةِ روايةِ هذه الحادثةِ؛ لأنّها لمّا انسلختْ مِن سياقِها غدتْ "هذا" كالنّكرةِ مفتقرة إلى الخبرِ المجلّي لمعنى الإسنادِ، فقدْ كان المعنى في السّياقِ الحيِّ مؤتلفًا مِن اللّغةِ الصّامتةِ "إشارة التعيين" والصّائتةِ، وفي الثّانيةِ غدا مؤتلفًا مِن الصّائتةِ المشفوعةِ بروايةِ الحركةِ الجسميّةِ بالكلماتِ.

جِلسةُ المتعلِّمِ المسترشِدِ:

"... بينما نحن عندَ رسولِ اللهِ – صلّى الله عليه وسلّم– ذاتَ يومٍ إذْ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثّيابِ، شديدُ سوادِ الشّعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السّفرِ، ولا يعرفُه منّا أحدٌ، حتّى جلس إلى النّبيِّ صلّى عليه وسلّم، فأسند ركبتَيه إلى ركبتَيه، ووضع كفّيه على فخذَيه وقالَ: يا محمّدُ، أخبرني عن الإسلامِ... ثمّ انطلق فلبث مليّاً، ثمّ قال لي: يا عمرُ، أتدري مَن السّائلُ؟ قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: فإنّه جبريلُ أتاكم يعلّمُكم دينَكم([73]).

ليس يستقيمُ في الذّهنِ أنْ يذهبَ الظّنّ بالقارئِ إلى أنّ أوصافَ الحركاتِ الجسديّةِ التي أثبتها راوي الحديثِ قدْ جاءتْ مِن بابِ التّزيّدِ أو الفضولِ؛ ذاك أنّها محمَّلةٌ بدلالاتٍ مخصوصةٍ في سياقِها الخاصِّ ذاك، وقدْ شهد أهلُ الحضرةِ مِن السّائلِ حركاتٍ دالّةً على فضلِ أدبِ المتعلِّمِ المسترشِدِ، فلم يجلسْ جلوسَ الضّيفِ، أو الآكلِ، أو المستوفِزِ، لا ولمْ يقفْ وِقفةَ العجلِ، ولمْ تصدرْ عنه إشاراتٌ أو حركاتٌ جسديّةٌ دالّةٌ على أنّه أتى ممتحِنًا يعايي الأذهانَ، بل تراجعتْ كلُّ هذه الاحتمالاتِ الدّلاليّةِ ليقومَ مقامَها دلالةُ جِلسةِ المتعلِّمِ المسترشِدِ، فقد جلس وجاهَ الرّسولِ الكريمِ –صلّى الله عليه وسلّم– مسندًا ركبتَيه إلى ركبتَيه دلالةً على المواجَهةِ والتّلقّي المباشرِ، ووضع يديَه على فخذَيه(أي فخذَي السّائلِ)، تحقيقًا لمطلبٍ تأدّبَ السّائلُ في حضرةِ المسؤولِ، كلُّ هذه المعاني التي تقومُ في النّفسِ باعثُها الحركةُ الجسديّةُ الدّالّةُ على معانٍ مخصوصةٍ، وقدْ ألمح إلى هذا شارحُ الصّحيح قائلاً: "وجلس على هيئةِ المتعلّمِ"([74]).

([73]) انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، باب الإيمان، 274/1.

([74]) قال: "وجلس على هيئة المتعلم"، انظر: النووي، شرح صحيح مسلم، 272/1.

وعلى صعيدٍ آخرَ، قدْ يحدثُ للرّاوي المرسِلِ أنْ يتواصلَ مع المستقبِلِ بحديثٍ، ولكنّه، في ثِني التّواصلِ، قدْ يرى مِن المستقبِلِ حركاتٍ وإيماءاتٍ تشي بأنّ حبلَ التّواصلِ قد انفصم، أو أنّ المرسِلَ بحاجةٍ إلى بيانٍ أو فضلِ بيانٍ، أو أنّ في نفسِ المستقبلِ سآمةً أو رضى عمّا يقولُ، فهذه كلُّها معانٍ قدْ تقعُ في نفسِ المرسِلِ لِتُؤْذِنَ، مِن بعدُ، بتعديلٍ في حركةِ روايتِه حديثَه تعديلاً يتساوقُ ومعنى حركةِ المستقبِلِ الجسديّةِ المومئةِ، والظّاهرُ أنّ تلكم الحركاتِ والإيماءاتِ قدْ تقومُ مقامَ كلماتٍ، ولعلّ هذا يظهرُ جليّاً في محاضراتِ الأساتذةِ لمّا يرَوْن على وجوهِ طلاّبِهم علائمَ الفهمِ والتّواصلِ، أو التّجهّمِ والتّفاصلِ، فيقبِضون ويبسطون بقدرِ ما يجدون.

ومِن الأمثلةِ على ذلك ما وقع في خُطبةٍ لأبي بكرٍ –رضي الله عنه– يقولُ فيها:"...ألا إنّ أشقى النّاسِ في الدّنيا والآخرةِ الملوكُ"! فرفعَ النّاسُ رؤوسَهم، فقال: "ما لكم أيُّها النّاسُ، إنّكم لطعّانون عَجِلون، إنّ مِن الملوكِ مَن إذا زهّده الله فيما في يدَيْه..."([75])، وقدْ عاين الصّدّيقُ مِن رفعِ الرّأسِ كلامًا صامتًا مضمارُه التّعجّبُ أو الإنكارُ، والظّاهرُ أنّ حركةَ روايتِه كانتْ سائرةً باطّرادٍ وتواصلٍ مع الحاضرين، ولكنّه، عند نقطةٍ مشخَّصةٍ، رأى مِنهم حركةً جسميّةً – وهي رفعُ الرّأسِ تعجّبًا واستنكارًا– قامتْ مقامَ كلماتٍ تقطعُ عليه حديثَ خطبتِه، فلمْ يجدْ بدّاً مِن تغييرِ حركةِ روايتِه حديثَه، والردِّ على ما قام في نفوسِهم مِن تساؤلٍ.

ومِن مثلِ ما تقدّم أنّ رَوحَ بنَ حاتمٍ قدم العراقَ فصعِد المنبرَ، فلمّا رآهم قدْ شَفنوا أبصارَهم، وفتحوا أسماعَهم قال: نكِّسوا رؤوسَكم، وغضّوا أبصارَكم، فإنّ المنبرَ مركبٌ صعبٌ([76])، والمُستصفى مِن هذه الحادثةِ أنّه رأى مِنهم حركاتٍ جسديّةً روتْ له إقبالَهم، وإصغاءَهم، وتعجبَّهم، هذا ما يدلُّ عليه رفعُ الرّأسِ وشَفْنِ البصرِ، فكان مِنه ردٌّ بلغةٍ صائتةٍ على تلك اللّغةِ الصّامتةِ.

لغةُ الجسمِ في التّنزيلِ العزيزِ:

يلفي القارئُ في التّنزيلِ العزيزِ آياتٍ كريماتٍ تشتملُ على أوصافٍ مِن الحركاتِ الجسميّةِ المؤدّيةِ إلى معانٍ، وقدْ تكونُ تلك الحركةُ سبيلاً مِن سبلِ وصفِ المعنى وتشكيلِه، وتكونُ سبيلُها الكنايةَ، كتقليبِ الكفَّين في مقامِ النّدمِ في التّنزيلِ، أو تقديمِ رجلٍ وتأخيرِ أخرى في مقامِ الحَيرةِ والتّردّدِ في كلامِنا اليوميِّ، وقدْ أجمع الجميعُ على أنّ "الكنايةَ أبلغُ مِن الإفصاحِ، والتّعريضَ أوقعُ

([75]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 43/2.

([76]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 249/2.

مِن التّصريحِ، وأنّ للاستعارةِ مزيّةً وفضلاً"([77])، ولو قيل: أراك تقدّمُ رجلاً وتؤخّرُ أخرى فإنّ القائلَ – كما يرى الجرجانيّ– يوحي له بالصّورةِ التي يقطعُ معَها بالتّحيّرِ والتّردّدِ، "وكان هذا أوقعَ مِن صريحِه الذي هو قولُك: بلغني أنّك تتردّدُ في أمرِك، وأنّك كمنْ يقولُ: أخرجُ أو لا أخرجُ .."([78]).

وقدْ يكونُ ذكرُ هذه الحركاتِ على سبيلِ وصفِ حقيقةٍ عاشها قطبٌ مِن أقطابِ الحديثِ أو الحدثِ الكلاميِّ؛ ذلك أنّها وقعتْ فِعلاً؛ ثمّ وصفها اللهُ لنا على أنّها كواشفُ لحالاتٍ نفسيّةٍ، ومِنها دلالاتُ حركةِ الرّأسِ وهيئتُه، والعينُ وهيئاتُها المتباينةُ بتباينِ الحالِ النّفسيّةِ والسّياقِ، واليدُ، والوجهُ، والخدّ، والعنقُ. لننظرْ في بعضِ هذا آخذين بعينِ العنايةِ فضلَين لورودِ الحركاتِ الجسميّةِ في التّنزيلِ العزيزِ؛ أوّلُهما فضلُها في أداءِ المعنى وتشخيصِه، وثانيهما ارتفاعُ الكلامِ إلى طبقةِ الفصاحةِ كما تقدّم آنفًا عند الجرجانيِّ، وسيتجلّى بعدًا عندَ الزّمخشريِّ.

❖ **مِن دِلالاتِ حركةِ الرّأسِ وهيئتِه:**

للرّأسِ حركاتٌ وهيئاتٌ حمّالةٌ لدلالاتٍ متباينةٍ بتباينِ الحالِ النّفسيّةِ والسّياقِ، كحركةٍ تنبئُ عن الرّفضِ، وأخرى عن القَبولِ، وثالثةٍ عن الاستهزاءِ، ورابعةٍ عن الإنكارِ، وخامسةٍ عن التّحيّةِ، وقد استجمع بعضُ مَن يتصدّرون لهذا المطلبِ؛ مطلبِ الوقوفِ على لغةِ الجسمِ، ثلاثَ هيئاتٍ كلّيّةٍ للرّأسِ: أوّلُها الرّأسُ الخفيضُ الذي قدْ يكونُ له مَحمولاتٌ دلاليّةٌ لا قِبَلَ لنا بتعييِنها إلاّ بالسّياقِ والحركاتِ المصاحبةِ، كالخجلِ، أو الخوفِ، أو الخضوعِ، أو الاستسلامِ، أو الضّعفِ، أو الجُبنِ. وثانيها الرّأسُ المرفوعُ الذي قدْ يُلْمحُ إلى الكبرِ والتّعالي، أو العداءِ، أو الإباءِ، أو الازدراءِ. وثالثُها الرّأسُ المنحني المثنيُّ إلى جانبٍ، فقدْ يومئُ إلى الفتنةِ، أو الغوايةِ، أو الملاطفةِ، أو الحنانِ([79])، وفي التّنزيلِ العزيزِ وردتْ للرّأسِ هيئاتٌ متعدّدة. لِنَرْجعِ البصرَ فيما يأتي:

الرّأسُ الخفيضُ المتطامنُ:

"ثمّ نُكِسوا على رؤوسِهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون"([80]).

([77]) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م، 70.

([78]) الجرجاني، دلائل الإعجاز، 70.

([79]) انظر :باكو، لغة الحركات، 60–61.

([80]) الآية (الأنبياء، 65).

وسياقُ الآيةِ الشّريفُ يقرّرُ أنّ مساءلةَ إبراهيمَ المُفحمةَ –عليه السّلامُ– أفضتْ إلى ولوجِهم في بابِ الحَيرةِ ورجعِ النّظرِ وإطراقٍ في التّفكيرِ، وللمرءِ أنْ يتصوّرَ حالَ مَن لا حجّةَ له حين يساءلُ فيفحَمُ فيغرقُ في التّفكيرِ والتّنقيرِ والتّأمّلِ، إخالُ أنّ حركةَ رأسِه ستكونُ على الهيئةِ المرسومةِ آنفًا، والمنبئةِ عن ارتكاسِه، وأوّلُ خاطرٍ ورد على نفوسِهم أنّ هؤلاءِ لا ينطقون، "فتحيّروا وعلموا أنّها لا تنطقُ"([81]). وقد التفتَ الشّريفُ الرّضيُّ إلى هذا التّصويرِ المُعْجبِ المُبين عن حالِهم، فالمرادُ به "وصفُ ما لحقهم مِن الخضوعِ والاستكانةِ والإطراقِ عندَ لزومِ الحجّةِ، فكأنّهم شُبّهوا بالمتردّي على رأسِه تدويخًا بنصوعِ البيانِ، وإبلاسًا عندَ وضوحِ البرهانِ([82]). ومِن مثلِ حركةِ الرّأسِ المنْبئةِ عن العجزِ والذّلِّ قولُه الحقُّ –تقدّس اسمُه–: "ولو ترى إذِ المجرمون ناكِسو رؤوسِهم عندَ ربِّهم ربَّنا أبصرْنا وسمعْنا فارجِعْنا ..."([83]). وللمرءِ أنْ يُسرِّحَ خواطرَه متمثِّلاً هذه الصّورةَ يومَ يقومُ النّاسُ لربِّ العالمين، فأمّا المجرمون الذي أوتوا كتبَهم بشمائلِهم فقدْ ندموا ولاتَ حينَ مندمٍ، وصاروا أذلّةً قلبًا وقالبًا، فالرّؤوسُ منكوسةٌ متطامنةٌ مطأطأةٌ مِن الذّمِّ والخزيِ والحزنِ والذّلِّ والغمِّ([84]).

تلويةُ الرّأسِ:

"**وإذا قيلَ لهم تعالَوا يستغفرْ لكم رسولُ اللهِ لَوَّوا رؤوسَهم ورأيتَهم يصدّون وهم مُستكبرون**"([85])، وفي تلويةِ الرّأسِ يتجلّى معنى الاستهزاءِ والإباءِ، والحقّ أنّ هذه حركةٌ جسديّةٌ شائعٌ استعمالُها، بيّنٌ معناها في يومِنا هذا، وسياقُ الآيةِ يُنبِئُ عن هذا المعنى الذي جاء في جنبِ المنافقين، فلمّا نزل القرآنُ بصفتِهم، مَشى إليهم عشائرُهم، قائلين: افتُضِحْتُم بالنّفاقِ، فاطلبوا أنْ يُستَغفرَ لكم، فكانَ جوابُهم بهذه الحركةِ الجسديّةِ استهزاءً وإباءً([86])، وقدِ التمس الطّبرسيُّ مِن هذه الحركةِ معنيَين متقاربَين، أوّلُهما أنّهم أكثروا تحريكَها بالهُزءِ، وثانيهما أنّهم أمالوها إعراضًا

([81]) انظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت،1997م، 77/7، وانظر ما قاله القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 200/11.

([82]) انظر: الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط1، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1986م، 156.

([83]) الآية (السجدة، 12).

([84]) انظر: القرطبي، الجامع، 64/14.

([85]) الآية (المنافقون، 5).

([86]) انظر: القرطبي، الجامع، 83/18.

عن الحقِّ، وكراهةً لذكرِ النّبيِّ صلّى الله عليه وسلّم، وكفرًا واستكبارًا([87])، وفي إمالتِها بالهزءِ إعراضٌ عن الحقِّ، فالمعنيان الواقعان تحتَ هذه الحركةِ الجسديّةِ صالحان لا يتدافعان.

إنغاضُ الرّأسِ:

"**فسيقولون مَن يعيدُنا، قل الذي فطركم أوّلَ مرّةً، فسينغضون إليك رؤوسَهم ويقولون متى هو**"([88]). يظهرُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ مشهدُ حوارٍ يتجاذبُه قطبان: مؤمنٌ مُثْبِتٌ، وجاحدٌ منكِرٌ يتوسّلُ لبثِّ إنكارِه بالرّافدَين: الصّامتِ، وهو إنغاضُ الرّأسِ، والصّائتِ، وهو قولُهم بأفواهِهم: "فسيقولون متى هو؟". أمّا عن دلالةِ إنغاضِ الرّأسِ فهي قائمةٌ على تحريكِه تحريكَ المستهزئِ المستخِفِّ المستبطِئِ لِما أنْذِروا به([89])، وقد قال القرطبيُّ: وأنغض رأسَه أي حرّكه كالمتعجِّبِ مِن الشَّيءِ([90]).

❖ **مِن دلالاتِ حركةِ العينِ وهيئتِها:**

وقدْ ورد للعينِ في التّنزيلِ العزيزِ صورٌ حركيّةٌ تتباينُ بتباينِ السّياقِ والحالِ، فانبنى على ذلك تباينٌ في الدّلالةِ التي ترشّحُ لها كلُّ حركةٍ للعينِ أو صورةٍ، وهذا –مِن وجهةٍ أخرى– ممّا يندرجُ تحتَ بابِ "والعينُ تنطقُ والأفواهُ صامتةٌ"، فهناك العينُ المزدريةُ الهازئةُ، والعينُ الكارهةُ السّاخطةُ، والعينُ الدّائرةُ الوجلةُ، العينُ المائلةُ الزّائغةُ، والعينُ الضّيّقةُ الكليلةُ، والعينُ الهامزةُ الغامزةُ... لنتبصّرْ فيما يأتي بسطًا للقولِ، ورفعًا للإجمالِ المتقدِّمِ:

العينُ المزدريةُ الهازئةُ:

وقدْ ورد هذا المعنى في قولِه الحقِّ –تقدّس اسمُه– على لسانِ نبيِّه نوحٍ عليه السّلامُ: "ولا أقولُ للذين تزدري أعينُكم لنْ يؤتيَهم اللهُ خيرًا"([91]). والظّاهرُ أنّها عينُ الكافرِ الجاحدِ التي يَستصغِرُ بها المؤمنين الفقراءَ، وما كان جوابَ نوحٍ إلاّ أنْ قال إنّه لا يقولُ لهؤلاءِ الفقراءِ الذين يستخفّونهم ويستقلّونهم وتحتقرُهم أعينُهم لنْ يؤتيَهم اللهُ خيرًا([92]).

([87]) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 14/10.

([88]) الآية (الإسراء، 51).

([89]) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 205/6.

([90]) انظر:القرطبي، الجامع، 178/10.

([91]) الآية (هود، 31).

([92]) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 199/5، وانظر ما قاله القرطبي فيها، الجامع، 19/9، وأبو حيان، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م، 219/5.

العينُ الكارهةُ السّاخطةُ:

وقدْ تجلّتْ هذه الدّلالةُ في قولِه –تبارك–: "وإنْ يكادُ الذين كفروا لَيزْلِقونكَ بأبصارِهم لمّا سمعوا الذّكرَ ويقولون إنّه لَمجنونٌ"([93]). وقدْ كثر كلامُ المفسِّرين عن دلالةِ العينِ في هذا السّياقِ الشّريفِ، والظّاهرُ أنّ هيئتَها ههنا تُؤْذنُ بتعيّنِ معنى العداءِ، والمعنى الكلّيُّ: ينظرون إليك عندَ تلاوةِ القرآنِ، والدّعاءِ إلى التّوحيدِ، نظرَ عداوةٍ وبغضٍ وإنكارٍ لِما يسمعونه، فكأنّهم يكادون يصرعونك بحدّةِ نظرِهم تلك، وقدْ عرّج الطبرسيُّ على أثرِ رسمِ هذه الحركةِ الجسميّةِ في توصيفِ المعنى، فهذا "مستعمَلٌ في الكلامِ، يقولون: نظر إليّ فلانٌ نظرةً يكادُ يصرعُني، ونظرًا يكادُ يأكلُني فيه، وتأويلُه كلّه أنّه نظر إلي نظرًا لو أمكنه معي أنْ يأكلَني أو يصرعَني لفعل"([94]).

العينُ الدّائرةُ الوجلةُ:

وقدْ ورد هذا المعنى في قولِ الحقِّ –تقدّس اسمُه– في وصفِ المنافقين: "أشحّةً عليكم، فإذا جاء الخوفُ رأيتَهم ينظرون إليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغشى عليه مِن الموتِ"([95])، وسياقُ الآيةِ الشّريفُ يدورُ في مضمارِ خوفِهم مِن القتالِ وانصرافِهم عنه، فهم الأشحّةُ الأضنّاءُ وقتَ البأسِ والشِّدادِ، والسّالقون بألسنةٍ حدادٍ، وقدْ تجلّى أثرُ خوفِهم وتجافيهم عنها في العيونِ الدّائرةِ المضطربةِ، فإذا ما ذُكِر القتالُ صاروا ينظرون كما ينظرُ المغشيُّ عليه مِن معالجةِ سَكَراتِ الموتِ حذرًا وخورًا ولواذًا([96])، والحقّ أنّ القرطبيَّ قد أجاد في استشرافِ معنى حركةِ هذه الجارحةِ في هذ السّياقِ الشّريفِ، فدورانُ الأعينِ باعثُه ذهابُ العقلِ حتّى لا يصحَّ منهم النّظرُ إلى أيِّ جهةٍ، وقيل "لشدّةِ خوفِهم حذرًا أنْ يأتيَهم القتلُ مِن كلِّ جهةٍ"([97]).

العينُ الهامزةُ الغامزةُ:

([93]) الآية (القلم، 51).

([94]) الطبرسي، مجمع البيان، 78/10. وقد قال القرطبي إن المعنى قد يكون "يعتانونك"، وينظرون إليك شزرا بتحديق شديد. انظر: القرطبي، الجامع، 166/18، والشريف الرضي، تلخيص البيان، 300، وأبو حيان، البحر، 311/8.

([95]) الآية (الأحزاب، 19).

([96]) انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة،1977م، 255/3، وأبو حيان، البحر، 214/7.

([97]) القرطبي، الجامع، 101/14، وانظر ما قاله الطبرسي، مجمع البيان، 108/8.

وقدْ تجلّتْ هذه الحركةُ العينيّةُ في قولِه –تبارك–: "ويعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصّدورُ"([98])، وللمفسِّرين في "خائنةِ الأعينِ" أقوالٌ ومذاهبُ ليس المقامُ مقامَها، وإنّما يعنينا ما ينتسبُ إلى لغةِ الجسدِ بنسبٍ حميمٍ، فقدْ قيل إنّ خيانتَها هي مسارقةُ النّظرِ إلى ما لا يحلُّ النّظرُ إليْه، وقيل هو الرّمزُ بالعينِ([99])، وقال القرطبيُّ هي الهمزةُ بالعينِ والرّمزُ بها، والإغماضةُ فيما لا يحبُّ اللهُ([100])، وقدْ ورد على دلالةِ هذه الحركةِ الجسميّةِ الشّريفُ الرّضيُّ، فعدّ قولَ الحقِّ "خائنة الأعينِ" استعارةً يرادُ بها الرّيبُ في كسرِ الجفنِ، ومرامزِ العيونِ، وقدْ سَمّى الحقُّ ذلك خيانةً لأنّه إمارةٌ للرّيبةِ، ومجانبٌ للعفّةِ([101])، وقد قال أبو حيّانَ في مَعرِضِ تعريجِه على خائنةِ الأعينِ وما تخفي الصّدورُ: لمّا كانتِ الأفعالُ التي يُقصَدُ بها التّكتّمُ بدنيّةً فأخفاها "خائنة الأعين" مِن كسرِ جفنٍ وغمزٍ ونظرٍ يُفْهِمُ معنى، أو قلبيّةً ضميريّةً ذَكَرَ اللهُ أنّ علمَه متعلّقٌ بهما التّعلّقَ التّامّ([102]).

العينُ المائلةُ الزّائغةُ:

وقدْ تجلّى هذا المعنى في قولِه –تباركَ–: "إذْ جاؤوكمْ مِن فوقِكم ومِن أسفلَ مِنكم وإذْ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ"([103])،وللمرءِ أنْ يتخيّلَ الموقفَ ذاك: أعداءٌ يتربّصون بالنّبيِّ وصحبِه الدّوائرَ، ومنافقون مُرجِفون في المدينةِ، وخطرٌ محدِقٌ محيطٌ كإحاطةِ الخندقِ بها، وقدْ ظهر ذلك على جوارحِهم، فغدتْ دالّةً ناطقةً بلسانِ المقالِ والحالِ، فَزَيغُها ميلُها عن مستوى نظرِها فعلَ الوالهِ الجزعِ([104])، فقدْ مالتْ عن كلِّ شيءٍ فلمْ تنظرْ إلاّ إلى عدوِّها مُقبِلاً مِن كلِّ جانبٍ، "وعدلتْ عن مقرِّها مِن الدّهشةِ والحَيرة كما يكونُ الجبانُ فلا يُعلَمُ ما يبصرُ"([105])، وقدْ ألمح إلى هذه الحركةِ العينيّةِ الشّريفُ فقالَ مستشرفًا معنى هذا الوصفِ الجسديِّ: "فالمرادُ به تشتّتُ ألحاظِها، وعدولُها عن جهةِ استقامتِها نظرًا إلى مطالعِ الخوفِ، وجزعًا مِن مواقعِ السّيفِ، ومِن عادةِ الخائفِ المتوقِّعِ أنْ يكثرَ التفاتَه، وتتقسّمَ ألحاظُه"([106]).

([98]) الآية (غافر، 19).

([99]) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 335/8.

([100]) انظر: القرطبي، الجامع، 198/15.

([101]) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 242.

([102]) أبو حيان، البحر، 438/7.

([103]) الآية(الأحزاب، 10).

([104]) انظر: أبو حيان، البحر، 211/7.

([105]) الطبرسي، مجمع البيان، 95/8، وانظر القرطبي، الجامع، 95/14.

([106]) الشريف الرضي، تلخيص البيان، 218.

العينُ الضّيّقةُ الكليلةُ:

وقدْ تجلّى هذا المعنى في قولِ الحقِّ: "وتراهم يُعرَضون عليها خاشِعين مِن الذّلِّ ينظرونَ مِن طرفٍ خفيٍّ"([107])، وقدْ وقف بعضُ القرّأة عندَ "خاشعين" مستشرفين مَفْصِلاً صوتيّاً للإبانةِ عن المعنى، ذاهبين إلى أنّ شبهَ الجلمةِ "مِن الذّلّ" متعلّقٌ بـ "ينظرون مِن طرفٍ خفيٍّ"([108])، وقد التمس المفسِّرون مِن قولِ الحقِّ "طرفٍ خفيٍّ" دلالاتٍ متعدّدةً، فقدْ يكونُ أنّهم لا يرمقون أبصارَهم للنّظرِ رمقًا تامّاً، لأنّهم ناكسو الرّؤوسِ، والعربُ تصفُ الذّليلَ بغضِّ النّظرِ مِن شدّةِ الخوفِ، وكأنّ حركةَ عينِهم تفضي إلى القولِ بأنّهم ينظرون مِن طرفٍ خفيٍّ، وقدْ يكونُ أنّهم ينظرون إليها بجميعِ أبصارِهم لِما يرَون مِن أصنافِ العذابِ([109])، ولعلّ الأشبهَ والأليقَ بمقصودِ الكلامِ أنّ المتعيّنَ مِن وصفِ هذه الحركةِ الجسديّةِ أنّ نظرَهم إليها هو نظرُ الخائفِ الذّليلِ، والمرتابِ الظّنينِ الذي لا ينظرُ إلاّ مُسترِقًا، ولا يغضُّ إلاّ مُشفِقًا([110])، والحقّ أنّ الزّمخشريَّ قد استشفَّ هذا المعنى قبْلاً، فألمح إلى أنّ نظرَهم يبتدِئُ مِن تحريكٍ لأجفانِهم ضعيفٍ خفيٍّ بمسارقةٍ، كما ترى المصبورَ ينظرُ إلى السّيفِ، وهكذا نظرُ النّاظرِ إلى الكارهِ، ولا يقدرُ أنْ يفتحَ أجفانَه عليها، ويملأَ عينَه مِنها كما يفعلُ في نظرِه إلى المتحابِّ([111]).

❖ **مِن دِلالاتِ حركةِ اليدِ:**

يتجلّى معنى النّدمِ مِن حركاتٍ جسديّةٍ في ثلاثِ هيئاتٍ مضمارُها اليدُ، وهي:

- "فأصبحَ يقلِّبُ كفَّيْهِ على ما أنفقَ فيها وهي خاويةٌ على عروشِها ويقولُ يا ليتني لمْ أشركْ بربّي أحدًا"([112]).
- "يومَ يَعَضُّ الظّالمُ على يدَيه يقولُ يا ليتني لمْ أتّخذْ فلانًا خليلاً"([113]).
- "ولمّا سُقِط في أيديهم ورأَوا أنّهم قدْ ضلُّوا"([114]).

ها نحن أولاءِ نعودُ إلى ظاهرةِ التّرادفِ في الحركةِ الجسميّةِ؛ ذلك أنّ هذه الحركاتِ الثّلاثَ تلتقي على معنى واحدٍ جماعُه النّدامةُ والأسفُ. أمّا الأولى فهي حكايةُ حالِ رجلٍ أصبح

([107]) الآية(الشورى، 45).

([108]) انظر: القرطبي، الجامع، 31/16، وأبو حيان، البحر، 501/7.

([109]) انظر: القرطبي، الجامع، 31/16، والطبرسي، مجمع البيان، 43/9.

([110]) انظر: الشريف الرضي، تلخيص البيان، 250.

([111]) انظر: الزمخشري، الكشاف، 474/3، وأبو حيان، البحر، 501/7.

([112]) الآية (الكهف، 42).

([113]) الآية (الفرقان، 27).

([114]) الآية (الأعراف، 149).

يقلّبُ كفَّيْه ندامةً على ما أنفق في جنّتِه لمّا أُحيط بثمرِه، فقد ألفاها خاويةً على عروشِها. أمّا الثّانيةُ فهي حكايةُ حالِ ظالمٍ يَعَضُّ على يدَيه ندامةً، فالأخلاّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوّ إلاّ المتّقين، أمّا الثّالثةُ فهي حكايةُ حالِ قومٍ اتّخذوا مِن حليِّهم عجلاً جسدًا مِن دونِ اللهِ، فلمّا فاؤوا إلى رشدِهم، وسُقِط في أيديهم، اعترفوا بذنوبِهم. واللاّفتُ للخاطرِ أنّ هذه الآياتِ الثّلاثَ تتقاربُ في سياقِها الكلّيِّ وحركتِها، فأوّلُها، كما يظهرُ، ظلمٌ للنّفسِ، كما كان مِن أمرِ مَن أشرك بربِّه في الأولى، والذي اتّخذ خليلَ سوءٍ في الثّانيةِ، والذين عبدوا العجلَ في الثّالثةِ، وثانيها ندمٌ ولاتَ حينَ المندمِ، ويعقبُ هذا كلَّه حالٌ نفسيّةٌ تظهرُ على الجوارحِ كما ظهرتْ على اليدِ، فالأوّلُ أصبح يقلّبُ كفَّيْه ظهرًا لبطنٍ، وهيئةُ تقليبِ الكفَّين أنْ يُبديَ باطنَ كفِّه، ثمّ يُعوِّجَ كفَّه حتّى يبدوَ ظهرُها، وهي فعلةُ النّادمِ المتحسِّرِ على شيءٍ قد فاته، المتأسفِّ على فقدانِه، وقيل أصبح يصفقُ بيدَيه([115]). أمّا في الثّانيةِ، وهي عضُّ الظّالمِ على يدَيه، فهي كذلك فعلةُ النّادمِ المتفجِّعِ، وقدْ عدّها أبو حيّانَ مجازًا يعبِّرُ بها عن التّحيّرِ والغمِّ والنّدمِ والتّفجّعِ، فقدْ جاء في المثلِ: "يأكلُ يدَيه ندمًا، ويسيلُ دمعُه دمًا"([116]). أمّا في الثّالثةِ، وهي السّقوطُ في اليدِ، فهذا أسلوبٌ كنائيٌّ ليس فيه مِنَ الحقيقةِ شيءٌ، فيُقال لكلّ مَن ندم وعجز عن شيءٍ: سُقِط في يدِه، وأُسْقِط في يدِه[117]. ولمّا عرّج الزّمخشريّ على هذه الآيةِ أشار إلى أنّ المعنى: "اشتدّ ندمُهم وحسرتُهم"، لأنّ مِن شأنِ مَن اشتدّ ندمُه وحسرتُه أنْ يعَضّ يده غمّاً، فتصيرَ يدُه مسقوطاً فيها، لأنّ فاه قد وقع فيها[118]، وقيل إنّها مأخوذةٌ مِن هيئةٍ جسديّةٍ ناطقةٍ تعتري النّادمَ، ولذلك يطأطئُ رأسَه، ويضعُ ذَقَنه على يدِه، معتمداً عليها، ويظلّ على صورةٍ لو نُزِعتْ يدُه لسَقط على وجهِه، كأنّ اليدَ مسقوطٌ فيها[119]، وصفوةُ القولِ في هذا الأسلوبِ الكنائيّ الرّفيع أنّها "لا شيءَ على الحقيقةِ هناك سُقط في أيديهم"[120].

([115]) انظر ما قيل فيها: الصولي، أدب الكاتب، 16، وأبو حيان، البحر، 123/6، والقرطبي، 266/10.

([116]) انظر: أبو حيان، البحر، 454/6، والقرطبي، الجامع، 13، 19، والطبرسي، مجمع البيان، 232/7.

([117]) انظر: الفراء – معاني القرآن، 393/1، أبو عبيدة – مجاز القرآن، 228/1 الأخفش – معاني القرآن ، 337، ابن قتيبة – تفسير غريب القرآن ، 172، اليزيدي – غريب القرآن ، 138، الراغب– اليزيدي–غريب القرآن،138، ابن الهائم– التبيان، 210.

([118]) انظر: الزمخشريّ، الكشاف، 118/2.

([119]) انظر هذه التفاسير: أبو حيان، البحر المحيط، 392/4، وقد عرج على معنى آخر، وهو أنها مأخوذة مِن "السَّقيط"، وهو ما يغشى الأرضَ بالغَدوات شبه الثّلج، والسّقيط يذوب بأدنى حرارةٍ ولا يبقى، ومَن وقع في يده السَّقيط لم يحصلْ على شيءٍ منه البتّة، فصار هذا القولُ مَثلاً لكلّ مَن خسِر، وكانتْ عاقبته النّدامة.

([120]) الشريف الرضي، تلخيص البيان، 60.

وقدْ وقف الزّمخشريُّ عند هذه الحركاتِ مُلْمِحًا إلى ذيوعِها بين النّاسِ، وتواضعِهم على معناها، فقدْ أشار إلى أنّ "عضَّ الأنامل، واليدَين، والسّقوطَ في اليدِ، وأكلَ البنانِ، وحرقَ الأسنانِ والأرم، وفروعَها، كناياتٌ عن الغيظِ والحسرةِ، لأنّها مِن روافدِها، فيذكرُ الرّادفةَ، ويدلُّ بها على المردوفِ، فيرتفعُ الكلامُ به في طبقةِ الفصاحةِ، ويجدُ السّامعُ عندَه في نفسِه مِن الرَّوعةِ والاستحسانِ ما لا يجدُه عندَ لفظِ المكنيِّ عنه"([121]).

❖ حركةُ اليدِ بين إيماءةِ السّكوتِ وإبداءِ الغيظِ:

"جاءتْهم رسلُهم بالبيّناتِ فردّوا أيديَهم في أفواهِهم، وقالوا إنّا كفرنا بما أُرْسلتُم به"([122])، وقدْ تباينتْ أقوالُ المفسّرين في استشفافِ هيئةِ "ردِّ أيديهم في أفواهِهم" تباينًا انبنى عليه اختلافٌ في دلالةِ هذه الحركةِ الجسديّةِ، فقدْ قيل:

- إنّها تومئُ إلى الغيظِ والكيدِ، فقد جعلوا أيديَ أنفسِهم في أفواهِ أنفسِهم ليعَضّوها غيظًا، وقريبٌ مِن هذا قولُه – تعالى–: "عضّوا عليكم الأناملَ مِن الغيظِ"([123]).
- إنّها تومئُ إلى الحَيرةِ والعجبِ؛ ذلك أنّهم سمعوا كتابَ الله فعجبوا ورجَعوا إلى أنفسِهم، وردّوا أيديَهم إلى أفواهِهم مُطرِقين متأمّلين.
- إنّها إشارةٌ معناها "اسكتْ"، فلمّا قال لهم رسولُ اللهِ إنّه رسولٌ مِن اللهِ إليهم أشاروا بأصابِعهم إلى أفواهِهم أنِ اسكتْ تكذيبًا له، وردّاً لقولِه، واستبشاعًا لِما جاء به.
- إنّها تومئُ بالهزءِ والضّحكِ، فمِن عادةِ مَن يغلبُه الضّحكُ أحيانًا أنْ يرفعَ يدَه إلى فيه([124]).

❖ تصعيرُ الخدِّ:

يظهرُ معنى الكبرِ والخُيلاءِ على الإنسانِ في هيئاتٍ متباينةٍ، فقدْ يشي بهذا المعنى لفظٌ يصدرُ مِن متلفِّظٍ ما، وقدْ تدلُّ عليه هيئةٌ جسميّةٌ تظهرُ على الجوارحِ، فتغدو ناطقةً كما اللّفظِ، فيقالُ إنّه متكبِّرٌ مزهوٌّ بنفسِه، وهيئةُ "تصعيرِ الخدِّ" واحدةٌ مِن التي تظهرُ على الجوارحِ، وأصلُ

([121]) الزمخشري، الكشاف، 89/3، وأبو حيان، البحر، 454/6.

([122]) الآية (إبراهيم، 9).

([123]) الآية (آل عمران، 119).

([124]) انظر هذه المعاني وغيرها: أبو حيان، البحر، 397/5، والقرطبي، الجامع، 226/9، والطبرسي، مجمع البيان، 48/6–49.

ذلك مأخوذٌ مِن الصَّعر الذي هو داءٌ يصيبُ البعيرَ فيلوي مِنه عنقَه([125])، وقدْ وقف المفسِّرون عندَ هذه الدّلالةِ الآتيةِ مِن هذه الحركةِ الجسديّةِ في قولِ الحقِّ –تقدّس اسمُه–: " ولا تصعّرْ خدَّك للنّاسِ"([126]):

- فالزّمخشريُّ يرى أنّ المتعيّنَ هو: أقبلْ على النّاسِ بوجهِك تواضعًا، ولا تولّهمْ شقَّ وجهِك وصفحتَه كما يفعلُ المتكبِّرون([127]).
- والقرطبيّ يقولُ: لا تملْ خدَّك للنّاسِ كبرًا عليهم، وإعجابًا، واحتقارًا لهم. وقيل هو أنْ تلويَ شِدقَك إذا ذُكر الرّجلُ عندَك كأنّك تحتقرُه، فأقبلْ عليهم متواضعًا مستأنسًا([128]).
- والشّريفُ الرّضيُّ يقولُ: "فكأنّه أمره ألاّ يشمخَ بأنفِه، ويعرضَ بوجهِه مِن الكبرِ تشبيهًا بالبعيرِ إذا أصابه ذلك الدّاءُ، ومِن صفاتِ الكبرِ رفعُ الطّرفِ حتّى كأنّه معقودٌ بالسّماءِ"([129]).
- وأبو حيّانَ يقولُ إنّ المعنى: لا تولِّهم بشقِّ وجهِك كفعلِ المتكبِّرِ، وأقبلْ على النّاسِ بوجهِك مِن غيرِ كبرٍ ولا إعجابٍ([130]).

❖ ثَنيُ العِطْفِ:

وهذه مِن الحركاتِ الجسميّةِ التي يُستدلُّ بها على معنى الكبرِ والإعراضِ، وقدْ ورد هذا المعنى في قولِ الحقِّ: "ومِن النّاسِ مَن يجادلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ ولا هدى ولا كتابٍ مُنيرٍ، ثانيَ عِطفِه ليضلَّ عن سبيلِ الله"([131]). وقدْ ذهب بعضُ المفسِّرين بـ "ثانيَ" على أنّها متعلّقةٌ بـ"يجادلُ"، والمعنى الكلّيُّ عندَهم قائمٌ على استشرافِ الدِّلالةِ مِن هذه الحركةِ الجسديّةِ، فقدْ قيل إنّ المتعيّنَ هو: يجادلُ متكبِّرًا لاويًا عنقَه بقبحٍ، شامخًا بأنفِه([132])، وقد جمع الزّمخشريُّ بين "تصعيرِ الخدِّ" و"ثَنيِ العِطف" تحتَ بابٍ دلاليٍّ واحدٍ؛ ذلك أنّ "ثَني العِطف عبارةٌ عن الكبرِ والخُيلاء،

([125]) انظر: الطبرسي، مجمع البيان، 67/8، والزمخشري، الكشاف، 234/3، والقرطبي، الجامع، 47/14، وابن منظور، اللسان، مادة "صعر".

([126]) الآية (لقمان، 18).

([127]) انظر: الزمخشري، الكشاف، 234/3.

([128]) انظر: القرطبي، الجامع، 74/14.

([129]) الشريف الرضي، تلخيص المجازات، 213.

([130]) أبو حيان، البحر، 183/7.

([131]) الآية(الحج، 19).

([132]) انظر: أبو حيان، البحر، 329/6.

كتصعيرِ الخدِّ وليِّ الجيدِ"([133])، وقدْ تأوّلها القرطبيُّ على معنيَين أحدُهما ليُّ العنقِ مرحًا وتعظّمًا، وثانيهما ليُّه معرِضًا، والعِطفُ ما انثنى مِن العنقِ، فكأنّ آتيَ هذه الحركةِ معرضٌ عن الحقِّ في جدالِه، ومولٍّ عن النّظرِ في كلامِه"([134]).

وبعد؛ فماذا عسى أنْ يقالَ؟

لعلّه يحسنُ أنْ يعقَّبَ هذا المبحثُ باحتراسٍ يأخذُ في غَورَين:

أوّلُهما أنّ ما ورد ههنا قليلٌ من كثيرٍ، فثمّ الوجهُ، وما كان أكثرَ حضورَه في التّنزيلِ العزيزِ! فثَمّ وجوهٌ ناضرةٌ، وأخرى عابسةٌ، وثالثةٌ باسرةٌ، وهذه كلُّها إيماءاتٌ وجهيّةٌ، وكواشفُ لحالاتٍ نفسيّةٍ، ودوالُّ على معانٍ معنويّةٍ، كالفرحِ، أو الحزنِ، أو الجزعِ، أو الخوفِ، وهناك وهناك وهناك...وهذا يكثرُ إنْ تتبّعتُه، وقدْ أوردتُ أمثلةً تنبّهُ على الغرضِ الذي قصدتُه.

وثانيهما أنّ تعيينَ معنى حركةٍ جسميّةٍ ما على وجهِ الإحكامِ يجبُ ألاّ يكونَ بمعزلٍ عن السّياقِ الذي تردُ فيه، وليس يُنسى الالتفاتُ إلى ما يصاحبُها مِن حركاتٍ أخرَ تترافدُ وتتضافرُ في الإبانةِ والبيانِ([135])، والحركةُ –وقدْ تقدّم إلماحةٌ إلى هذا– كالكلمةِ، فلها دلالةٌ مجرَّدةٌ مبثوثةٌ في بطونِ المُعجمات، ولها دلالةٌ أو دلالاتٌ أخرى تتباينُ بتباينِ السّياقِ، وتباينِ ما يصاحبُها مِن كلماتٍ أخرَ، وهذا هو حالُ الحركةِ الجسديّةِ في لغةِ الجسدِ، ومِن المُثُلِ المجلّيةِ لهذه الفكرةِ صورةٌ ناطقةٌ بالإبانةِ عن وصفِ حالِ الكافرين يومَ القيامةِ وصفًا قلبيّاً وقالبيّاً، فالحقُّ يقولُ: "إنّما يؤخرُهم ليومٍ تشخصُ فيه الأبصارُ، مُهطعين مُقنعي رؤوسِهم لا يرتدُّ إليهم طرفُهم"([136])، وفي هذه الآيةِ وصفٌ ذو دلالاتٍ لحركاتٍ جسديّةٍ نستعينُ على تعيينِها بدلالةِ السّياقِ الكلّيّةِ التي تتجلّى على جوارحِهم عينًا ورأسًا وطرفًا ومشيةً([137]).

الفاتحةُ:

وممّا بدا لي في هذا الدَّرسِ؛ درسِ لغةِ الجسدِ، زعمٌ مفادُه أنّ التّواصلَ بالجسدِ جدُّ قديمٍ قُدمةَ الإنسانِ، ولكنّ دراستَه دراسةً علميّةً لم تتمّ إلاّ حديثًا جدّاً، والظّاهرُ أنّ هذه المقولةَ في شقِّها

([133]) الزمخشري، الكشاف، 6/3.

([134]) انظر: القرطبي، الجامع، 12/12، وقد أشار الشريف إلى هذين المعنيين أيضا. انظر: تلخيص البيان، 170.

([135]) Pease, Body Language, P.17.

([136]) الآية (إبراهيم، 43).

([137]) انظر ما قيل في هذه الآية: الطبرسي، مجمع البيان، 6/9–70، والقرطبي، الجامع، 247/9، وأبو حيان، البحر، 418/5–419، والشريف الرضي، تلخيص البيان، 113.

الأوّلِ لا شيةَ عليها ولا شبهةَ. أمّا في شقِّها الثّاني فقدْ بدا أنّه يعوزُها مراجعةٌ واستدراكٌ؛ ذلك أنّ للغةِ الجسدِ في مصنَّفاتِ القدماءِ حضورًا جليّاً أمرُه، وأنّهم عوّلوا عليها كثيرًا في استشرافِ المعاني والمقاصدِ، وليس يصحُّ في الفهمِ أنْ يُظَنَّ أنّ التّأليفَ فيها حديثٌ، بل الأمرُ بالضّدِّ، فلعلماءِ العربيّةِ قصبُ سبقٍ طويلٍ في هذا المضمارِ، ولعلّ البونَ بين علماءِ العربيّةِ التّراثيّين والمُحْدثين الغربيّين أنّ الأخيرينَ فصّلوا وبوّبوا وأسهبوا، فعقدوا لكلِّ جارحةٍ بابًا أو أبوابًا أو كتبًا().

وممّا بدا لي أنّ "لغةَ الجسدِ" الصّامتةَ –وقدْ تقدّم الحديثُ عن هذا– عالميّةٌ، فثَمّ حركاتٌ وإيماءاتٌ معمَّرةٌ متقادمةٌ تُتداولُ في المشارقِ والمغاربِ، ومثالُ ذلك حركةٌ عمادُها وضعُ الإصبعِ أو البنانِ في الفمِ، وقدْ رآها "موريس" دالّةً على الخوفِ، أو القلقِ، أو ما يدورُ في فَلَكِ هذين المعنيَين([138])، وقدْ رواها لنا عمرُ بنُ أبي ربيعةَ مِن قبلُ روايةَ حركةٍ وسياقٍ فقال:

وقالتْ وعضّتْ بالبنانِ فضحتَني وأنتَ امرؤٌ ميسورُ أمرِك أعسرُ([139]).

وبعدُ، فليكنْ هذا البحثُ فاتحةً لأبحاثٍ أخرَ: فاتحةً لمعجمٍ لغويٍّ يرصدُ ألفاظَ الحركةِ الجسميّةِ ليثبتَها فيه مقسمًّا إلى حركاتٍ فطريّةٍ، وأخرى مكتسبةٍ، أو مِهْنيّةٍ، أو جنسيّةٍ، أو سياسيّةٍ، أو أنثويّةٍ... ليكنْ فاتحةً لأبحاثٍ أخرَ؛ كاستشرافِ هذه الظّاهرةِ في لغةِ التّنزيلِ العزيزِ استشرافًا شاملاً وافيًا، أو في الحديثِ الشّريفِ، أو في ديوانِ شاعرٍ... ليكنْ هذا البحثُ فاتحةً لأبحاثٍ أخرى تجمعُ بين الدّرسِ اللّغويِّ الاجتماعيِّ والنّفسيِّ.

وحَسبي بعدَ هذا المتقدِّمِ قولُ الجاحظِ في بيانِه وتبيينِه: "وربّ قليلٍ يغني عن الكثيرِ، كما أنّ ربَّ كثيرٍ لا يتعلّقُ به صاحبُ القليلِ، بل ربّ كلمةٍ تغني عن خُطبةٍ، وتنوبُ عن رسالةٍ، بلْ ربّ كنايةٍ تُربي على إفصاحٍ، ولحظٍ يدلّ على ضميرٍ، وإنْ كان ذلك الضّميرُ بعيدَ الغايةِ..."([140]).

ثبت المصادر والمراجع:

([138]) انظر: باكو، لغة الحركات، 64.

([139]) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق عبد أ. علي مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

([140]) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 7/2.

– إبراهيم أبو عرقوب، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 1993م.
– أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، دار صادر، بيروت، د.ت.
– الأنباري، أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، أسرار العربية، ط1، تحقيق فخر صالح قدارة، دار الجيل، بيروت، 1995م.
– البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ط3، تحقيق قاسم الرفاعي، دار الأرقم، بيروت، 1997م.
– بيز، ألن، مهارات تحقيق المبيعات الناجحة، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1999م.
–الثعالبي، أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، دار الفكر، دمشق، 1997م.
– الجاحظ، أبو عثمان عمرو، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1990م.
– الجرجاني، عبدالقاهر بن عبد لرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.
– ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1990م.
– جيرو، بيير، علم الإشارة، ترجمة منذر عياشي، ط1، دار طلاس ، دمشق، 1992م.
– أبو حيان، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرين،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993م.
– ابن داود، أبو محمد الأصفهاني، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985م.
–ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر ونقده، ط5، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، 1981م.
– الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، القاهرة،1977م.
– سمير دبابنة، نافذة على تعليم الصم، مؤسسة الأراضي المقدسة(منشورات منظمة المبادرات "initiatives" لتعليم الصم)، السلط، ط1، 1996م.
–سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.

– الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ط1، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، 1986م.

–الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.

– الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن،دار المعرفة، بيروت، 1978م.

– عمر بن أبي ربيعة، ديوانه، تحقيق عبد أ. علي مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

– الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، الدار المصرية، القاهرة، 1955م.

–القالي، أبو عليّ إسماعيل بن القاسم، الآمالي، تحقيق محمد عبدالجواد الأصمعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.

– القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ط5، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.

–ابن كثير، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت،1980م.

– ماجدة سيد عبيد، القاموس الإشاري للصم، ط1، نشر على نفقة المؤلفة، جامعة الملك سعود، الرياض، 1992م.

– ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د. ت).

– مهدي عرار، سياق الحال عند الإمام الغزالي في المستصفى: دراسة دلالية تواصلية، مجلة العربية، ع 39، أمريكيا، 2002.

– مهدي عرار، ظاهرة اللبس في العربية: جدل التواصل والتفاصل، ط1، دار وائل، عمان، 2003م.

– نازك عبد الفتاح، مشكلات اللغة والتخاطب في ضوء علم اللغة النفسي، ط1، دار قباء، القاهرة، 2002م.

– نتالي باكو، لغة الحركات، ط1، ترجمة سمير شيخاني، دار الجيل، بيروت، 1995م.

– النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم، ط3، دار القلم، بيروت، د.ت.

بالإنجليزية:

- Albert E., Scheflen, Alice Scheflen, Body Language and Social Order: Communication as Behavioral Control, Prentice-Hall, Englewood Cliffs, 1972.

- Hess, E., The Tell-Tale Eye, Van Nostrand Reinhod, New York, 1975.
- Paul, L., Visual Communication: Images with Messages, Wadsworth Publishing Company, California, 1995.
- Pease, A., Body Language: How to Read Others' Thoughts by Their Gestures, Camel Publishing Company, Australia, 1990.